مكسيم جوركي

الأصدقاء الثلاثة

رواية

تقديم ومراجعة

د.ماجد عبد الرحمن

الكتاب: الأصدقاء الثلاثة (رواية)

الكاتب: مكسيم جوركي

تقديم ومراجعة: د.ماجد عبد الرحمن

الطبعة: ٢٠٢٢

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف: ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس: ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

جوركي ، مكسيم

الأصدقاء الثلاثة / مكسيم جوركي، تقديم ومراجعة/ د.ماجد عبد الرحمن

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٢٣٣ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ١ – ٥٣٧ – ٩٩١ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع: ١٣١٦٨ / ٢٠٢٢

الأصدقاء الثلاثة

رواية

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

تقديم

يظل رائد الواقعية الاشتراكية مكسيم جوركي على الرغم من مرور سنوات عديدة على رحيله، فيعد واحداً من أكثر الروائيين في العالم تأثيراً في القراء والكتاب على حد سواء، لما عرف به من فرادة أسلوبية ونمط سردي رصين يتمثل ببراعة وصفه ودقة تصويره وغوصه في الظواهر الاجتماعية المحيطة بعمق ورشاقة أعماله المكتوبة بحرقة إنسانية تلج القلب بسلاسة جعلته حاضراً بحضور موضوعات قصصه التي عالجت واقعها المر للمصادفة – جوركي بالروسية تعني أيضاً "المر"–واستشرفت المستقبل بعين الفنان الرائي.

ومكسيم جوركي هو صاحب واحدةٍ من النَّقلات المهمة في تاريخ الأدب الروسي. وقد عاش قريبًا من جميع النَّاس، محبًّا للثقافة بمعناها الواسع الفضفاض، فطوَّف في ربوع روسيا كلها حتَّى يتعرف على الإنسان، الإنسان الذي كان انطلاقة كل أعماله العظيمة بلا استثناء، والتي عدَّها تولستوي من أهم الأعمال الأدبية في أوربا.

وتُعد رواية (الأصدقاء الثلاثة) دليلًا ناصعا على مرحلة هامةٍ في تطور كتابة جوركي، حتى أنه كتب ذات مرة متمنيا أن تصل هذه الرواية للنَّاس جميعًا، ويجدر بنا أن نتوقف قليلا عند سيرة كاتبها الذي نال شهرة

عالمية في بدايات القرن العشرين، وهو لما يزل شابا في حوالي الثلاثين من عمره وأصبح واحداً من الكتّاب الأكثر رواجا في روسيا وفي العالم كله.

وفي العهد السوفيتي أطلق اسمه على المدن والشوارع والمصانع والجامعات والمكتبات والمسارح والمتنزهات وحتى بعض السفن والطائرات، ربما يتبادر الى الذهن اسماء بوشكين وجوجول وتولستوي ودوستويفسكي وتشيخوف. فهم الأكثر شهرةً وأسماهم مكانةً في الادب الروسي، ولكن لم يطلق اسماؤهم على المدن، ولم يتم اقامة تماثيل لهم، ولم تدرّس أعمالهم في المدارس والجامعات،عندما كانوا على قيد الحياة.

وقد وصف تشيكوف جوركي بأنه كاتب شديد الموهبة، وبأنه كاتب استثنائي وجاء "في الوقت المناسب" تماما، فأعماله عبّرت عن تناقضات الواقع وعن هموم الكادحين والتطلعات الانسانية والآمال الدفينة للشعب الروسي في العصر الذي عاش فيه، وهذا العصر هو الذي مجّد شخص وأدب مكسيم جوركي واكسبه شعبية هائلة.

عندما كان جوركي في المهجر في مدينة كابري الإيطالية كان يدعو إلى ثورة اشتراكية إنسانية، وإلى احترام الأديان لا محاربتها، وكان هذا مبعث خلاف شديد بين الصديقين لينين وجوركي. ولكن الخلاف بينهما لم يصل إلى حد القطيعة ذلك لأن كل منهما كان بحاجة الى الآخر، فقد كان الحزب البلشفي بحاجة إلى سلطة جوركي المعنوية الكبيرة أو قوته الناعمة في روسيا وأوروبا، وعلاقاته الواسعة مع كبار الأدباء في الغرب. وكان جوركي بدوره

يعتقد أن الحزب البلشقي هو وحده القادر على إحداث التغيير المنشود في المجتمع الروسي.

من هو؟

"مكسيم جوركي" هو الإسم الأدبي الذي اتخذه لنفسه "الكسي مكسيموفتش بيشكوف"، وقد غير اسمه ليهرب من البوليس القيصري الذي كان يطارده بسبب نشاطه الثوري، فاختار اسما دالا على حياته، فمكسيم تعني "المر" بالروسية للدلالة على ما في حياته من قسوة مرة، أما جوركي فهي تعني التلال، بدلالتها على الارتفاع عن سطح الأرض.

وقد ولد الكسي في الثامن مارس عام ١٨٦٨، في "نيجني نوفجورود"، التي تتبع مدينة استراخان، وكان الأب قد انتقل اليها بتكليف من صاحب شركة الملاحة التي كان يعمل بها، وهناك أشرف على بناء قوس النصر الذي أقامته المدينة ترحيبا بزيارة الامبراطور الكسندر الثاني لها. وهناك ولد الكسي، ومنذ ولادته وهو يعيش حياة قاسية، فوالده النجار مكسيم بيشكوف تزوج من "فارفارا كاشيرينا" على غير رغبة والدها فطردها، ولم تعد لبيته إلا بعد وفاة زوجها، بسبب الكوليرا، وكان عمر ابنهما الكسي أربعة أعوام فقط، وسرعان ما لحق شقيقه بالأب، وهو المشهد الذي لم ينسه أبدا مكسيم جوركي، ويصفه في كتابه "طفولتي" مشهد الطفل الصغير الراقد في تابوت في السفينة التي نقلتهم إلى المدينة.

وكيف أن أمه بقيت تنظر إلى ابنها البكر الكسي بنفور، وكأنه السبب في موت والده وشقيقه.

كذلك لم ينس أبدا مشهد انزال التابوت الذي احتوى جثة والده في حفرة مملوءة بالماء حيث تقافزت حوله الضفادع، وعندما بدأ حفارو القبور إهالة التراب عليه حاولت الضفادع الخروج من الحفرة، لكن لم تستطع مما أثار شفقة ألكسي على الضفادع المحكوم عليها بالموت.

بعد شهور من الإقامة في بيت جده تركته أمه لتتزوج من رجل ثان، فاضطر جده إلى قبوله في بيته، وتولت تربيته الجدة "أكولينا ايفانوفنا" التي لعبت دورا كبيرا في تنشئة الطفل الكسي الذي بلغ عامه السابع. لكن ساءت أحوال الجد المالية فأرسل الصبي في البداية للعمل في أحد محلات بيع الاحذية، حتى عادت إلى بيت أبيها بعد انفصالها عن زوجها، ورجعت مريضة هزيلة،، ثم توفيت أمه بعد ست سنوات من وفاة أبيه، وبعدها أودعه لدى أسرة من اقرباء الجدة ليعمل خادما لكنه هرب منهم بعد فترة قصيرة.

وهكذا بدأت مبكرا رحلة مكسيم جوركي الطويلة في "طريق الآلام" قد بدأت منذ ولادته في نيجني نوفجورود وحتى وفاته في عزبة جوركي في الثامن عشر من يوليو ١٩٣٦ وقد تركت وفاة أبويه في نفسه جرحا لم يندمل فبدأ كتابه "طفولتي" بمشهد موت الأب، وانتهى الكتاب بموت الأم ثم طرد جده له من البيت ليخرج إلى العالم. فلاقى أهوالا دفعته إلى محاولة

الانتحار ليتخلص من حياته، فأطلق النار على نفسه، لكن الرصاصة اخترقت الرئة، وأخطأت القلب.

ولم يكن يومها قد وصل إلى التاسعة عشرة، وكانت محاولة الانتحار بعد فشله في الالتحاق بجامعة قازان. ومنذ ذلك الحين بدأ صراع الكسي من أجل العيش، فتغيرت المهن التي عمل بها، وكان من أصعبها العمل في مخبز حيث كان يحمل منذ الفجر أكياس الطحين الثقيلة ويعد العجين ثم يوقد الفرن وبعد ذلك يحمل الخبز والمعجنات إلى السوق، وكان جده في البداية يرغمه على حفظ المزامير وأداء الصلوات والذهاب الى الكنيسة. وعن ذلك كتب جوركي: "لم أحب الذهاب إلى الكنيسة مع جدي، فقد كان يرغمني على الانحناء، ويدفعني دائما وبشكل مؤلم في عنقي". وقد تأثر الكسي كثيرا بوفاة أخوته الذين رزقت بهم أمه فارفارا كاشيرينا من الزوج الاول ومن الزوج الثاني، الواحد بعد الاخر فعاش وحيدا، وفيما بعد يئس الجد منه، وتركه وشأنه، لكن الكسي قال فيما بعد أنه فقط كان يحب التطلع إلى الايقونات وسماع التراتيل الحزينة.

وقد ذكر جوركي سواء في مذكراته أو في كتابه "طفولتي" وقائع كثيرة تعكس قسوة جده لكنه مدين له بحفظه للمزامير ولمقاطع من الكتاب المقدس، فقد أتاح له ذلك أن يتفوق في المدرسة الابتدائية الكنسية التي التحق بها.

وعلى العكس من ذلك وقد أضفى جوركي على جدته هالة من القدسية في أعماله الأدبية، وليس هذا الكتاب فقط، بالرغم من أن جده كان يصفها بـ" الساحرة الخبيثة". فقد كانت جدته بالنسبة له مثال الحنان والدفء، كما كانت مصدرا للحكايات الجميلة، بالرغم من أنها كانت امرأة بسيطة ولا تجيد القراءة والكتابة. وقد حلت الجدة محل الام، فصار يحتمي يحتمي بها من الآخرين، حتى حينما اضطر مرة لمغادرة البيت بأمر من الجد، قالت له مودعة: لا تغضب من الآخرين، انك تغضب لأتفه الأسباب حتى لا تكون متعجرفا مثل جدك، وأفهم شيئا واحدا، إن الرب رحيم لا يدين البشر، بل إن إبليس وحده من يفعل ذلك، وهكذا تعلم الكسي منها التوجه الى العذراء فهي أم الدنيا، ومعنى ذلك أمه. ولهذا كان يقبل أيقونة العذراء من موضع الشفتين، مما أثار استهجان الآخرين في عائلة فاسيلييف التي بدأ العمل في محلها التجاري في قازان.

قال جوركي: "إنني ولدت جسديا في نيجني نوفجورود، بينما ولدت روحيا في قازان" وكانت فكرة الجد في ان يذهب الحفيد للعيش "بين الناس" مثله حينما بدأ حياته العملية حينما كان يجر السفن على ضفاف نهر الفولجا، ثم اصبح "انسانا" عندما تم ترقيته الى رئيس عمال هيئة الملاحة النهرية ورئيس الدوما المحلي، وفي الواقع كون جوركي عقيدته في الحياة في قازان، خصوصا حين عمل في مخبز كان صاحبه يوجه أرباحه لتطوير التعليم والحركة الشعبية في المدينة. وكتب جوركي عن حياته في

قازان يقول: "في سن الخامسة عشرة عاما تملكتني رغبة عارمة في أن أتعلم، لذلك سافرت إلى قازان لاعتقادي بأن العلم يقدم الى الراغبين مجانا، ولكن تبين أن اعتقادي غير صحيح، فالتحقت بمخبز لصنع المعجنات مقابل روبلين في الشهر. وكان العمل هناك من أشق الأعمال التي مارستها في حياتي".

ومن المعروف أن جوركي لم يكمل الدراسة حتى في المدرسة الابتدائية الكنسية، واجتاز فقط صفين من التعليم في مدرسة بضواحي نيجني نوفجورود، فقد اضطر لترك المدرسة بعد إصابته بالحصبة.

وكانت الفترة التي قضاها جوركي في قازان من أصعب فترات حياته الملأى بالمصاعب، فهناك قام بمحاولة الانتحار وعمره تسعة عشر عاما، بأن حصل على مسدس ثم توجه الى تل قريب من الدير وأطلق النار على نفسه، يقول أن أهل المدينة هم من أنقذوه وليسوا رهبان الدير، وبقي الكسي في المستشفى لفترة حتى تم علاجه . لكن واجهته محنة أخرى حيث سلّمه الشرطي أمر الكنيسة بتحريمه لارتكابه خطيئة الانتحار. وطالبه الشرطي بالتوجه إلى الكنيسة لإعلان التوبة وطلب المغفرة، لكنه رفض.

يقول إن الفترة التي قضاها في "قازان" كانت فرصة للاطلا ع على مخلوقات كانت بشرا، والتعرف على حياة الأقبية حيث يعيش المشردون، وكذلك التحدث مع الطلاب الذين كان يبيع الكعك لهم، وهناك تعلم جوركي الكثير في لقاء شخصيات أخرى يشبهون ديرينكوف صاحب

المخبز، إذ انتقل للعمل في ورشة لرسم الأيقونات، ثم في غسيل الأطباق في السفينة "دوبري". وكان طباخ السفينة وهو ضابط صف مقاعد يحتفظ في السفينة بصندوق فيه بعض الكتب. وكان يدعوه الى مقصورته ويعطيه احد الكتب ويقول: اقرأ .. وإذا لم تفهم فعاود القراءة أكثر من مرة .. وحتى سبع مرات! وإذا لم تفهمه في المرة السابعة فأقراه إثنتي عشر مرة وهكذا اعتاد القراءة التي لم تكن من عاداته، فصار يشتري الكتب بنفسه عندما تتوقف السفينة في الموانئ المختلفة.

وقد منحته الكتب إجابات عن الأسئلة التي كانت تثير حيرته أو قلقه، فواصل القراءة عندما ترك السفينة ليعمل في صيد الأسماك ثم عمل بستانيا، وبعدها عمل حارسا في محطة قطارات، ثم تركها أيضا ومارس عدة مهن أخرى، كان همه الأول أن يحصل على كتاب سواء بأن يستعيره من أحد معارفه أو يشتريه، أوحتى يقوم بسرقته، وقد أحب أولا الروايات المسلية وكتب المغامرات، وهو الأمر الذي أثر عميقا على أسلوبه الأدبي الذي يعتمد على الإثارة العاطفية وهو ما أخذه عليه النقاد فيما بعد. بعد قازان سافر الى مدينة كراسنوفيدوف،حيث تنقل كالعادة بين أعمال كثيرة، إلى أن انضم إلى جماعات تولستوي التي انتشرت في انحاء روسيا، حيث يقوم الشباب بالعمل في المزارع بعيدا عن المدن، وقد جذبت هذه الجماعات وقتها العديد من الكتاب منهم تشيخوف وبونين وليونيد اندرييف وغيرهم، ولم تطل فترة بقائه في المزرعة إذ تم استدعاؤه للخدمة

العسكرية في مدينته الأصلية نيجني نوفجورود. لكن اللجنة الطبية رأت أنه يفتقد إلى اللياقة البدنية فأعفي من الخدمة، لعدم لياقته الصحية. بعدها عاود التجوال في أنحاء روسيا مرة اخرى. ومارس شتى المهن في الموانى وغيرها. لكن وجوده في مكتب لينين أتاح له الاطلاع على كتب غيرت تفكيره. فهناك قرأ كتاب نيتشه "هكذا قال زرداشت" يرى فيه أن الإنسان مثل "الجسر" الذي أقامته الطبيعة بين الحيوان الإنسان الأعلى. وبقيت تلك الفكرة راسخة عنده وانعكست في اعماله الادبية ومنها مسرحيته "الحضيض" حيث يقول على لسان ساتين: "الإنسان هو الحقيقة .. فما أعجب الإنسان".

وقد ساعدته رحلاته المختلفة في روسيا وتقلبه بين أعمال شتى في التعرف حياة الفقراء القاسية، فجمع كثيراً من المشاهدات والانطباعات، التي كونت مادة الكثير من أعماله الأدبية اللاحقة. فقد كتب جوركي القصص ونشرها في دوريات مختلفة، وفي عام ١٨٩٢ بدأ بالنشر بالاسم المستعار «جوركي» قصة «ماكار تشودرا» وتعني المر، ثم توالت قصصه: «تشيلكاش» و«العجوز إيزرجيل» و«أنشودة عن العقاب»، وتظل رواية «الأم» عام ١٩٠٦ من أشهر وأهم أعماله وأوسعها انتشارا، بعد ها كتب ثلاثيته التي تتناول سيرة حياته، وتحمل عناوين: «الطفولة» بين ١٩١٣ و«بين الناس» عام ١٩١٦ و«جامعاتي» عام ١٩٢٣.

وفي عام ١٩٢٥ صدرت رواية «مشروع آل أرتمون» التي تبرز حقبة مهمة من تاريخ روسيا (١٨٦٣–١٩١٧)، من خلال تصوير حياة ثلاثة أجيال من أسرة آل أرتمون، ثم انكب حتى وفاته على روايته الأخيرة «حياة كليم سامجين» التي يرسم فيها لوحة للحياة الاجتماعية والروحية في روسيا منذ نهاية سبعينيات القرن التاسع عشر وصولاً إلى ثورة ١٩١٧.

لغز الوفاة

في بداية يونيو ١٩٣٦ أعلنت الحكومة السوفيتية تردي صحة جوركي، وقد وصفت التقارير اليومية التي كانت تصدر عن حالته الصحية بأنها متناقضة وحافلة بالثغرات والكذب من أجل تهيئة الرأي العام لقبول نبأ الوفاة الطبيعية للكاتب الشهير، التي أعلنت في ١٨ يونيو ١٩٣٦.

وقد تمت عملية تشريح جثة جوركي على عجل فور وفاته، وعلى طاولة الطعام في بيته الريفي، وأشار تقرير التشريح إلى أن الوفاة نتجت عن التهاب حاد في الفص السفلي من الرئة اليسرى. وقد تم حرق جثته وحفظ رمادها، وكان ستالين في مقدمة من شارك في مراسم جنازة الكاتب وحمل نعشه، وقد تم دفن الرماد في جدار الكرملين على خلاف وصية جوركي بدفنه بجوار ضريح إبنه في موسكو، وفي شهر مارس عام ١٩٣٨ اتهمت الحكومة السوفيتية رسميا أعداء الشعب (الجناح التروتسكي داخل الحزب) بقتل جوركي، حيث جرت محاكمتهم وتم الحكم عليهم بالإعدام.

وطوال سبعين عاما ظلت وفاة جوركي محل شك، وطالت الاتهامات بقتله ستالين شخصيا، ويدلل أصحاب هذا القول بما كتبه رجل الأمن المسؤول عن حماية قصر جوركي في مذكراته أن الكثير من الأطباء أبدوا استعدادهم لمعالجة جوركي ولكن طلباتهم رفضت. وأن الحقنة التي أرسلها القنصل الروسي في باريس، وزعم أنه اكتشاف جديد سيؤدي إلى الشفاء أدت إلى تفاقم الحالة وموت الكاتب الكبير.

بعد وفاة الكاتب بدأ البحث عن أرشيفه الإيطالي، وكان يتضمن مراسلاته السرية المتبادلة مع عدد من قادة الحزب والأدباء البارزين المعارضين لستالين، الذين تمت تصفيتهم، وكان الأرشيف يسبب قلقا شخصيا لستالين فقد كان هناك رسائل من بوخارين، وريكوف، وكامينيف وآخرين من قادة الجناح التروتسكي في الحزب.

أما ماريا بودبيرج سكرتيرة جوركي في سورينتو بايطاليا، فقد أحضرت هذا الأرشيف إلى موسكو بتكليف من جهاز المخابرات، وخلال تشييع جنازة جوركي كانت تسير خلف ستالين مباشرة. وظل لغز موت جوركي غامضا الى نهاية القرن العشرين عندما تم نشر الوثائق السرية ذات العلاقة به المحفوظة في أرشيف الرئاسة السوفيتية.

وقد توصلت "لجنة إعادة الإعتبار" إلى أولئك الذين تعرضوا للقمع بطريقة غير مشروعة في عهد "ستالين" إلى براءة بعض الأطباء المعالجين لجوركي من التهم الموجهة اليهم، ولكن اللجنة لم تبرىء يهوذا والمختبر

البايولوجي السري التابع لجهاز المخابرات، فقد ثبت أنه تم حقن الكاتب المريض بمصل دم ملوث بالبكتريا، تم جلبه من المختبر المذكور، وهو مصل لم يكن خطيراً بالنسبة للأصحاء، ولكنه كان قاتلا بالنسبة لرجل كبير السن مصاب بمرض السل المزمن منذ سنوات عديدة.

د.ماجد عبد الرحمن

الفصل الأول

كان بيت بتروشكا فليمونوف من أعجب البيوت في مدينة رومونوفسكي، كان يقع في الحي الشعبي بها، وكان الناس يعجبون من قدرته على احتمال ذلك العدد الكبير من سكانه، ذلك أن حانة صاحبه كانت تحتل الدورين الأرضي والأول منه.. وكانت تزدحم كل ليلة بالسكارى من مختلف الطبقات الشعبية، وكان البدروم يضم عدداً من السكان الفقراء، منهم الإسكافي برفشكا وابنته الصغيرة مباشا، ومنهم مانيتزا، فتاة الليل ذات الجسم الضخم والعينين الواسعتين المخيفتين، ومنهم بافيل ابن الحداد جراشوف الذي قتل زوجته بسبب سوء سلوكها، وأودع السجن مدى الحياة، ومنهم العم الأحدب ترنتي الذي يعمل مساعداً للخمار بتروشكا.. وفي غرفة مجاورة كان يقيم إيليا لنييف – الذي يعمل بائعاً متجولاً– وهو ابن أخي الأحدب ترنتي.. وفي إحدى هذه الغرفات كان يقيم الزبال العجوز بيريمي الذي مات وقيل أن الخمار بتروشكا والأحدب ترنتي سرقا كل أمواله المدخرة –وتبلغ بضعة آلاف من الروبلات– وهو لا يزال يحتضر.

في هذا البيت العجيب نشأ الأصدقاء الثلاثة: إيليا لنييف، وبافيل جراشوف ابن الحداد، وياكوف ابن بتروشكا الخمار، ثم صديقتهم ماشيا إبنة الإسكافي برفشكا.

عاش هؤلاء الأصدقاء الأربعة منذ طفولتهم في ذلك البيت العجيب.. فقربهم تقارب السن، فضلا عن اليتم والحرمان والفاقة.. إيليا لنييف كان يتيم الأبوين.. مات أبوه في سيبيريا بعد إتهامه بأنه أحرق القرية التي عاش فيها، وماتت أمه مباشرة وكان جده، ناسكا مات في صومعته بالجبل. وحمله عمه الأحدب ترنتي من قرية كينزنايا إلى ذلك البيت وهو لم يبلغ بعد الرابعة من عمره وكان ياكوف إبن صاحب البيت يتيم الأم، وكذلك كانت ماشا ابنة الإسكافي السكير برفشكا.. أما بافيل جواشوف، فقد ماتت أمه على يد أبيه الحداد، وذهب أبوه ليموت في سيبيريا.

ولما شب الأولاد الثلاثة عن الطوق، اضطر ييكوف إلى معاونة أبيه في عمله بالحانة، واشتغل بافيل حيناً من الزمن مع الإسكافي برفشكا، ثم هرب منه إلى حيث لا يعلم أحد، وذهب إيليا ليعمل في متجر للأسماك، ولكنه لم يلبث أن عاد، بعد بضعة أشهر مطروداً، لأنه ضبط مساعد صاحب المتجر وهو يسرق، ولما حاول المساعد أن يضربه، أمسك بسكين وقرر أن يدافع بها عن نفسه، وفزع منه صاحب المتجر وطرده. فعاد إيليا إلى بيت بتروشكا.. وقرر أن يشتغل بائعاً متجولاً، وها هو ذا يخرج لأول مرة، معلقاً صندوق تجارته في رقبته، يجوب الطرقات من الصباح إلى المساء، متنقلاً بأنظاره بين وجوه الناس، رافعاً أنفه إلى السماء، ضاغطاً بقبصته حتى أذنيه، نافخاً صدره وهو ينادي على سلعه:

– صابون.. شموع.. دبابيس.. مشابك.. خيط.. وإبر!

وكانت الحياة الفائرة حوله تموج بحرار ة، وكان هو يحس بالحرية والرضا بعد أن عاش سجيناً في متجر السمك بضعة أشهر. أنه يخوض الزحام في سوق المدينة حيناً، ويدخل حانة ليستريح ويشرب قدح شاي حيناً آخر، ويعود إلى النداء على سلعه في معظم الأحيان، لقد وجد الحياة على هذا النحو بسيطة، سهلة، جميلة. وأن أحلامه أصبحت واضحة وبسيطة أيضاً. أنه يتخيل نفسه – بعد سنوات قليلة– صاحب متجر للخردوات. متجر نظيف محترم يتردد عليه أناس محترمون. وسوف يغدو هو أيضاً نظيفاً محترماً، قوي الجسم، وسيم الشكل. وسوف يحترمه جيرانه وترسل إليه البنات نظراتهن المختلسة، وفي المساء بعد أن يغلق المتجر، سوف يجلس في غرفة نظيفة، يشرب الشاي، ويقرأ الكتب والمجلات والصحف. إن كل آماله في الحياة أن يعيش نظيفاً، في متجر نظيف، وفي بيته نظيف، ومع أناس محترمين لا يسيئون إليه، ولا يدعونه يسييء إليهم.

وبعد يوم من التعب وقلة الربح، كان يجلس في حانة مطرق الرأس، يتذكر الساعات الطويلة التي أمضاها جائلاً في الطرقات، رجال الشرطة يطاردونه والعملاء يسخرون منه، والناس يحتقرونه، وزملاؤه البائعون يشتمونه ويتآمرون عليه في هذه اللحظات اليائسة، كان يشعر بإحساسات عميقة تتحرك في نفسه، وتملؤها بالقلق والخوف وأنه يرى ببصيرته شيئاً من حقيقة الحياة. يرى بوضوح أن الناس جميعاً يتسابقون ويتزاحمون للوصول إلى هدف واحد: إنهم جميعاً يريدون أن يعيشوا حياة مريحة نظيفة، خالية

من القلق والخوف! ومن أجل الوصول إلى هذا الهدف لا يتردد الواحد منهم في إزاحة كل من يعترض سبيله، يزيحه بيده، أو يوقعه على الأرض أو يمسك به ليعطله.. كلهم من أجل هذا الهدف، طماعون، قساة لا يتورعون عن إيذاء غيرهم لأتفه الأسباب، أو بلا أسباب.. وإنما لمجرد إرضاء نزواتهم فقط.. وفي بعض الأحيان يضحكون عندما يوجهون الإهانات إلى الغير، وقليل منهم من يشعر بالرحمة للغير!

كانت هذه الأفكار تفقده الشعور بمتعة العمل كبائع جوال، وتحجب كل آماله في أن يصبح يوماً صاحب متجر خردوات نظيف! وفي هذه الحالة يشعر بفراغ هائل في أعماق نفسه، وبإرهاق شديد في أعضاء جسمه. وكان يخامره الإحساس العميق بأنه لن يظفر قط بالمال الكافي لإمتلاك متجر خاص به، وبأنه سوف يقضي بقية حياته بائعاً جوالاً، يمشي بين الناس، حاملاً صندوق السلع معلقاً من رقبته.. على أن هذه الحالة من اليأس والتشاؤم لا تلبث أن تزول عندما يزداد ربحه في أحد الأيام عما كان يتوقع.

وذات يوم لمح في الطريق صديق طفولته، بافيل جراشوف يسير متمهلاً وقد وضع يديه في جيوبه سراويله المهلهلة، وكان مرتدياً قميصاً أزرق فضفاضاً، قذراً، مهلهلاً مثل السراويل. وكان حذائه الكبير الرث يطرقع على بلاط الشارع، وعلى رأسه قبعة مكسورة الحافة، وموضوعة بميل على مؤخرة رأسه، أما عنقه ووجهه فكانا مكسوين بطبقة من القذارة

.. تعرف بافيل على إيليا من بعيد وأومأ برأسه. ولكن إيليا أسرع ولحق به، وقال له:

– ما أبهى منظرك يا بافيل؟

وضحك بافيل وهو يصافح صديقه بحرارة، وقال إيليا:

– كيف حالك الآن؟

– في أحسن حال إذا وجدت ما يؤكل.. أكلت. وإذا لم أجد، هززت رأسي ونمت جائعاً.. كيف حالك أنت يا إيليا؟ إنني سعيد برؤيتك..

– وأنا أيضاً سعيد برؤيتك يا بافيل، لماذا لا تأتي وتزورنا؟

– ألا زلت مقيماً في بيت بتروشكا؟

– نعم ..

– قال لي ياكوف أنك تعمل في متجر للسمك في مكان ما بالمدينة

وسرد عليه إيليا ما حدث بينه وبين صاحب المتجر ومساعده، فقال بافيل:

– أحسنت بالدفاع عن نفسك.. لقد اشتغلت في مطبعة، ثم طردت بسبب سوء سلوكي، واشتغلت مع نقاش. ولما شتمني شتمته، فانهال علي بالضرب، وشاركته زوجته في ضربي حتى تعبت أذرعهما. وأخيراً التحقت

بالعمل مع سباك نظير ستة روبلات في الشهر، إنني الآن عائد إلى عملي بعد أن فرغت من تناول الغداء.

- يبدو أنك غير متعجل للعودة!

- اللعنة عليهم.. إنني مهما بذلت من جهد في العمل، فإنه لا ينتهي. لسوف أحضر لزيارتكم قريباً..

- أرجوك أن تفعل..

- ألا تزالون تشربون الشاي في الأمسيات. وتقرأون الروايات؟

- نعم.. وأنت..

- أقرا أحياناً وإن كنت نسيت الكتابة..

- ألا زلت تقرض الشعر كعادتك؟

- أحياناً ..

- حسناً.. لا تتأخر في زيارتنا، ولا تنس أن تحضر معك بعض أشعارك..

- سأفعل.. وسأحاول أن أحضر معي زجاجة فودكا.

- أتشرب الخمر يا بافيل؟

- كثيراً.. طاب يومك..

وانصرف إيليا وهو يفكر في بافيل ولم يستطع أن يفهم لماذا لم يشعر صديقه المهلهل الثياب بالحسد حين رآه وهو مرتد ثوباً نظيفاً وحذاء لامعاً، بل لقد لاح عليه –على بافيل– أنه لم يلحظ شيئاً من هذا. وأكثر من هذا لقد أعرب بافيل عن ابتهاجه حين أخبره إيليا عن نجاحه في العمل كبائع متجول، وعن تحسن أحواله المعيشية أخيراً.. ترى هل أصبح بافيل لا يهتم كثيراً بما يهتم به الناس.. الإستقرار.. والنظافة.. والراحة والخلو من القلق والخوف.

وأحس إيليا بالإضطراب، وعاد في المساء إلى مسكنه وقد خامره اليأس من كل شيء.. لم يعد يفكر في آماله، ولا في متجر الخردوات الذي يتمنى أن يكون ملكاً خالصاً له ذات يوم. ومضى –كعادته كل ليلة– إلى غرفة ماشا حيث إبريق الشاي على الموقد البترولي، وكان إيليا يحضر معه الشاي والسكر وبعض الكعك والحلوى والمربى. وكانت ماشا –البالغة من العمر أربعة عشر عاماً– تحب أن تقدم الشاي وملحقاته إلى جاريها وصديقيها ياكوف وإيليا.. وكانت بدورها قد بدأت تعرف كيف تكسب قوت يومها، ذلك أن ماتيتزا –إبنة الليل– علمتها كيف تصنع الأزهار الصناعية من الورق الملون. وفي بعض الأحيان كانت تكسب في اليوم نصف روبل. وكان والدها قد عاد من المستشفى بعد شفائه من التيفوس، نحيل الجسم، هزيلاً، شاحب البشرة. وكان يعمل لدى زملائه الإسكافيين

نظير دريهمات ينفقها في كل ليلة على الخمر. وهكذا كانت إبنته سيدة نفسها، وصارت تناديه بإسم برنشكان وكأنه غريب عنها.

وصار شرب الشاي مع ماشا وياكوف تقليداً بهيجاً، في كل ليلة كانوا يشربون كميات كبيرة منه، ويتبادلون الحديث في جميع الموضوعات التي تهمهم وكان إيليا يسرد عليهم تفاصيل أحداث يومه.

ويروح ياكوف الذي كان يقضي كل وقت فراغه في قراءة الكتب، يحدثهم عن قراءاته، أو يسرد عليهم المعارك التي تقع في الحانة، ثم يشكو من قسوة أبيه عليه، وكان للشاي مذاق ممتع في أفواههم، ولزفيف الإبريق على الموقد صوت الموسيقى في آذانهم، وإذا كانت الليلة مقمرة، إنسابت حزمة من ضوء القمر عبر النافذة إلى غرفة الأصدقاء الثلاثة، فيخفف من وحشتها، ومن رطوبتها، ومن إختفاء الهواء فيها.

وفي بعض الليالي كان برتشكا –والد ماشا– يشترك بالجلوس معهم في ركن الغرفة وكانت ابنته تقدم إليه الشاي كأنه زائر غريب وكان هو يشكرها قائلاً:

– شكراً يا عزيزتي ماشا..

ثم يلتفت فجأة إليهم ويردف قائلاً:

– االلعنة عليكم أيها الصغار، إنكم تعيشون كالسادة الأغنياء؟! ويروح يحدثهم من طفولته الشقية وعن أيام الجوع والحرمان التي عاشها،

وعن دهشته من بقائه حتى تلك اللحظة، ثم ينظر إلى أله الأكرديون التي لا تفارقه ويردف قائلاً:

– لولا هوايتي للعزف على هذه الآلة لما استطعت أن أبقى حياً إلى هذه اللحظة. إنني أخرج من حانة لأدخل في أخرى.. هذه حياتي.. وأنا سعيد بها، ولا شك أن الله نفض يديه مني لأنه يدرك أنه لا جدوى من إصلاح حالي..

وفي ذات مرة قال له ياكوف:

– إنك تتحدث يا برتشكا كأنك لا تريد شيئا من الحياة..

– من قال هذا؟ إنني أريد دائماً كأساً من الخمر..

ويقول إيليا:

– ولكن.. ألا تريد شيئاً أخر.. شيئاً جاداً؟

– نعم أريد.. أريد ألة أكرديون جديدة. ألة تساوي عشرين أو خمسة وعشرين روبلاً.

ويرسل ضحكة قصيرة، ثم يردف قائلاً بوجه محزون:

– لا يا ولدي.. إنني لا أريد حتى هذا، فإذا كانت ألة الأكرديون تساوي شيئاً فمن

المؤكد أنني سأبيعها وأشرب بثمنها. وثانياً ماذا يكون الأمر لو جاءت الألة الجديدة أسوء من ألتي القديمة، إن الأكرديون الذي أملكه لا يقدر بثمن.. إن فيه روحي،فيه صباي وشبابي.. إنه رفيق عمري.. والشيء الجميل ليس جميلاً لأنه جديد، وإنما لأنه محبوب.

وكان يحلو لياكوف أن يناقش إيليا وماشا فيما يقرأه من مختلفت الكتب. وكان إيليا يضيق بهذه المناقشة ويرى أنها تدور حول أشياء لا يمكن للإنسان أن يجد لها تفسيراً.. فمثلاً كان ياكوف يبدأ المناقشة بقوله:

- ماذا يحدث للروح عندما ننام؟

ويرد إيليا قائلاً في إضطراب:

- ومن أين لي أن أعرف..؟

- أعتقد أنها تطير..

وتقول ماشا وهي تومىء برأسها:

- لاشك في هذا..

ويرد إيليا في توتر عصبي:

- كيف تعرفين هذه الحقيقة؟

- أعرفها بدون أن أفهمها..

ويسرع ياكوف إلى إنقاذها فيرد قائلاً:

– إنها تطير فعلاً.. إنها تحتاج إلى الراحة مثل أجسادنا.. وهذا هو سبب أحلامنا أثناء النوم..

ويعجز إيليا من الرد، فيصمت. وفي خلال السكون المخيم على الغرفة، يسمع الجميع ضجيج الحانة في الطابق الأعلى. ويعود ياكوف إلى المناقشة قائلاً:

– إن الإنسان يقضي عمره وهو يجري هنا وهناك يعمل ويشقى ويكسب المال.. ثم إذا هو في لحظة واحدة.. جثة هامدة.. فما معنى هذا؟ ما معنى هذا يا إيليا؟

– ولكن الصغار يموتون أيضاً.. حتى الأطفال.. والأصحاء .. أتعرف السبب؟

– لا..

– ولماذا يعيش الناس؟

ويغتصب إيليا ضحكة قصيرة ويقول:

–إنهم يعيشون حباً في الحياة.. إنهم يسعون إلى النجاح وإلى الفرصة التي تجعلهم أغنياء نظفاء..

– هذه هي أهداف الفقراء.. ولكن ماذا يريد الأغنياء؟

– أيها الأحمق.. إذا لم يكن هناك أغنياء، فلمن يعمل الفقراء؟ ويصمت ياكوف برهة ثم يقول: – إذن فلابد أن نعمل جميعاً...

– لا.. لسنا جميعاً.. أن بيننا الذين عملوا وإدخروا المال ثم أصبحوا يعيشون جميعاً من أجل العيش في ذاته..

– إنني لا أفهم؟

– ألا تفهم أن الحياة هدف في ذاتها؟ إن الذين لديهم ما يكفيهم، يحبون أن يعيشوا لمجرد العيش.. حباً في الحياة ذاتها..

ثم يردف إيليا قائلاً لياكوف بصوت حاد:

– وأنت.. لماذا تعيش؟.

ويرد ياكوف قائلاً في وداعة:

– إنني لا أدري.. ولا يهمني أن أموت.. حقاً سوف اشعر بالفزع. ولكن الأمر سيكون مسلياً..

– ليس هناك ما يدعو للغضب إلى هذا الحد يا إيليا. أترى.. أن الناس خلقوا ليعملوا.. وقد خلق العمل للناس. وهذا يعني أن الأمر كله كالعجلة الدائرة.. تدور وتدور دون أن تصل إلى مكان معين، فما جدوى هذا كله؟

وصاح إيليا به قائلاً:

– كفى.. إنك تدير رأسي بهذا اللغو الذي تقرأه في الكتب.. إنك لا تفهم شيئاً مما تقرأ..

– ولأنك لا تفهم تروح تهذي كالمجنون!

– لا.. لست كالمجنون.. انظر إلى هذا الصباح مثلاً؟ إنه أمامنا؟ أليس كذلك؟ إذا أوقدته بعود ثقاب حصلت على نار. وهذا يعني أن النار موجودة وإنما لا تحتاج إلى هذا العود من الثقاب لإظهارها.. فلماذا لا تراها بدون عود الثقاب؟

وقالت ماشا بتردد:

– لقد كانت النار في عود الثقاب..

– وأين ذهبت يا ماشا؟

– في الجو.. في الهواء..

– ولماذا لا يسخن الهواء مادامت كل هذه النيران تذهب إليه!؟

– وهتف إيليا قائلاً بإستنكار:

– إسمع يا ياكوف.. الأفكار تختلط في ذهنك لأنك لا تفعل شيئاً. كيف تقضي وقتك؟ وتقضيه واقفاً وراء منصة الشراب.. أهذا عمل؟ من المحتمل أن تقضي حياتك كلها واقفاً وراء المنصة وكأنك جزء منها. أما إذا جبت الشوارع من الصباح إلى المساء مثلي بحثاً عن الرزق، فإنك لن تجد وقتاً للإستغراق في مثل هذه الأفكار المضطربة.. لسوف تشغل ذهنك بالتفكير في كيفية الوصول إلى حياة نظيفة مستقرة في هذا العالم، وفي إنتهاز كل فرصة تسنح لك لتحقيق هذا الهدف، أن رأسك كبيرة لأنها تورمت

بهذه الأفكار المضطربة. أما الأفكار البسيطة الواضحة فإنها لا تورم الرأس..

وأطرق ياكوف برأسه، وعقد يديه في حجره، وأخذ يحرك شفتيه في حديث صامت.. ولكنه سرعان ما قال:

– يقولون إن هناك كتاباً علمياً.. كتاباً عن السحر الأسود.. يشرح كل شيء مبهم في هذه الحياة. لشد ما أتمنى الظفر به!

وكانت ماشا تقبع في فراشها وتنتقل بنظراتها في صمته من وجه أحد الشابين إلى الآخر.. ثم إذا هي تتثاءب وتسقط رأسها على الوسادة، وعندئذ يقول إيليا:

– لقد حان وقت النوم..

وأسرع ياكوف قائلاً:

– إنتظرني.. سوف أضع الغطاء على ماشا وأطفيء المصباح.. ولكن إيليا يسرع إلى الباب في غير مبالاة.. ويهتف ياكوف قائلاً:

– إنتظرني أرجوك.. إنني أخشى الصعود إلى غرفتي في الظلام.

وصاح إيليا في سخرية:

– يالك من جبان.. أتخاف الظلمة وأنت في السادسة عشرة من عمرك، وإنني أكبرك بعامين فقط ومع ذلك لا أطرف بعيني لو رأيت الشيطان نفسه!

ويسرع ياكوف –في صمت –إلى وضع الغطاء على ماشا، ثم يطفيء المصباح، تاركاً حزمة صغيرة من ضوء القمر تتسلل إلى الغرفة المظلمة الرطيبة.

الفصل الثاني

في أحد أيام العطلات، عاد إيليا إلى البيت شاحب الوجه، وألقى بنفسه على الفراش دون أن يخلع ملابسه، وكان الغضب يجثم على قلبه كأنه ثقل من الحديد البارد، وكان الألم في عنقه يجعله عاجزاً عن تحريكه، وكانت كل ذرة في جسمه تئن بالألم والشعور بالهوان.. فيومها كان أحد رجال الشرطة قد سمح له نظير قطعة من الصابون المعطر ودستة مشابك، بالبيع داخل حلقة من الملاهي أقيمت بمناسبة يوم العطلة ذاك. وما كاد إيليا أن يتخذ مكاناً للبيع حتى أقبل عليه شرطي أخر وضربه على رأسه وركل صندوق بضاعته ونثر ما فيه على الأرض، وقال إيليا محتجاً وهو يجمع السلع المتناثرة:

– ليس من حقك يا سيدي..

ففتل الشرطي شاربه وقال:

– ماذا؟... وليس من حقك أن تضربني!..

فقال الشرطي، الذي كان برتبة جاويش لمساعده:

– حسناً؟ خذه ياميجونوف إلى مركز الشرطة..

فأمسك به الشرطي الذي ظفر منه بالصابون والمشابك، وإقتاده إلى مركز الشرطة حيث إحتجز من الصباح إلى المساء.

لم يسبق لإيليا أن إصطدم برجال الشرطة، أو أمضي بضع ساعات في مركز لهم ومن ثم إمتلأت نفسه بأشد أنواع الغضب والاستنكار. وكان يسمع وهو راقد على هذا النحو ضجيج السكارى وغناؤهم وضحكاتهم المخمورة وشتائمهم المتبادلة: ثم عراكهم ووقع اللكمات والضربات على وجوههم وصدورهم.

أنصت إيليا إلى هذا كله في شيء من الرضى والسرور.. لقد كان يتوقع أن ينتهي الغناء والصخب إلى الضرب والسب. وقد أكد ما حدث رأيه في الناس. ومن ثم عقد يديه تحت رأسه وراح يفكر: "لعل جدي الراهب أنيبا قد إرتكب إثماً كبيراً جعله يعيش ثمانية أعوام ناسكاً في صومعة فوق الجبل.. يصلي لله ولا يكلم مخلوقاً من البشر، ومع ذلك فقد غفر الناس له ذلك الإثم الكبير ولقبوه بالقديس على أن هذا لم يمنعهم من أن يظلموا إبنه ويتهموه بأنه أشعل النار في القرية، ثم نفوه إلى سيبيريا. ثم طردوا إبنه الثاني، الأحدب ترنتي، وحفيده إيليا من القرية"..

ضحك إيليا بعد أن أفاق من تفكيره.. ضحك وهو يشعر بكراهيته للناس تتلوى في أعماق نفسه كالأفعى الباردة. وأخد يتخيل صوراً مختلفة من الناس الذين تملأ الكراهية قلبه لهم.. ونهض مغادرا غرفته إلى الجزء الأمامي من الفناء، كان يهفو لأن يذهب إلى أي مكان، ولكن الساعة كانت متأخرة، وقد نامت ماشا، ولزم ياكوف الفراش لصداع في رأسه ولم

يشأ إيليا أن يزوره لأن أباه الخمار بتروشكا، لم يكن يحب إيليا أو يحب أن يراه بالقرب من الحانة..

وكانت رياح الخريف الباردة تهب، والظلام كثيفاً بحيث لم تكن السماء مرئية وكانت البيوت الأخرى تبدو كأنها رقع من الظلام تعبث بها الرياح وإرتفع صوت باب يفتح.. ثم ينصفق.. ثم همهمة في الهواء الرطيب البارد كأنها همهمة أحزان البشر وصدمت الرياح صدر إيليا، وصفعت وجهه وإندست في ملابسه، وسرت في بدنه رعدة وقال لنفسه: إنه لن يستطيع أن يستمر في الحياة على هذا النحو.. أن عليه أن يهرب إلى مكان آخر.. ليس فيه هذا الظلام.. وهذه القذارة.. وهذا الفقر: وإنما فيه النظافة. والإستقرار.. والطهر..

وسمع صوتاً متحشرجاً ينساب في الظلام يقول:

– من هناك..؟

– ومن المتحدث؟

– أنا ماتيتزا..

– وأين أنت؟!

– جالسة على كومة الخشب في الفناء.

– لماذا؟

– لا لشيء..

وخيم الصمت. وشعر إيليا بالعطف على هذه الفتاة التي تلتقط رزقها ببيع جسدها لكل

من يريد.. وعاد الصوت يقول:

– إن اليوم هو نفس اليوم الذي ماتت فيه أمي منذ عشر سنوات.

– كم كان عمرك يومذاك؟.

– السابعة عشرة. هل أمك على قيد الحياة يا إيليا؟

– لا. ماذا بك؟

– ساقي تؤلمني.. لقد دلكتها بأنواع مختلفة من الزيوت على غير جدوى.

وفتح شخص ما باب الحانة.. وإندفعت شحنة من الأصوات إلى الخارج، ولكن الرياح نثرتها في كل مكان مظلم.

وعادت ماتيتزا، إبنة الليل، تقول:

لماذا أنت جالس هكذا في الفناء يا إيليا؟

– لا لشيء.. أشعر بالملل..

– مثلي.. إن غرفتي تشبه التابوت..

– ثم سمعها تتنفس بعمق وتردف قائلة:

– تعال معي إلى غرفتي يا إيليا..

ونظر إيليا إلى الإتجاه الذي يأتي منه الصوت، ثم قال بلا مبالاة:

- حسناً.. هلم..

وهبطت ماتيتزا من كومة الخشب، وتقدمت إلى باب البيت، وهبطت الدرجات القليلة إلى غرفتها بالبدروم، وكانت تعرج بساقها المريضة، وتبعها إيليا بلا تفكير وهو يشعر بتعاسة في نفسه كما يحز الألم في ساق ماتيتزا..

وكانت غرفتها طويلة، ضيقة، خفيضة السقف، تشبه التابوت حقاً وبجوار الباب كان ثمة موقد مشيد في الجدار بالأجر، وفي الجانب المواجه سرير عريض بجواره منضدة ومقعد، وبالقرب من النافذة مقعد أخر.. وكان ضجيج الحانة أكثر وضوحاً في هذه الغرفة منه في الغرفات الأخرى.

وجلس إيليا على المقعد بجوار النافذة، وتلفت حوله، ثم قال وهو يشير إلى صورة قديسة معلقة بالجدار:

- صورة من هذه؟

- القديسة حنة..

- وما اسمك أنت؟

- حنة أيضاً.. ألم تكن تعرف؟

- لا..

وتراخت في فراشها متهالكة، وراح إيليا يرمقها دون أن يشعر بأية رغبة في مواصلة الحديث، وأثرت هي أيضاً الصمت.. ومضت لحظات بدا أن كلاً منهما لا يشعر بوجود الآخر.

وقالت الفتاة أخيراً:

– حسناً.. ماذا سنفعل؟

– لا أدري..

فأرسلت ضحكة لها دلالتها وقالت:

– أحقاً؟ ماذا لو دفعت لي الأجر مقدماً؟

– إشتر لي زجاجة بيرة..

– لا بل إشتر لي شيئاً يؤكل.. إنني أكاد أموت جوعاً.

ثم أردفت قائلة في شبه إعتذار:

– إنني لم أستطع الخروج منذ يومين بسبب ساقي ولم أكل شيئاً خلال هذين اليومين. أقسم لك على هذا.

ورمقها إيليا برهة في عطف ورثاء، ثم قال وهو ينهض:

– لسوف أحضر لك طعاماً..

وأسرع إلى الحانة، ووقف بباب المطبخ حيث اشترى من الطاهي كمية كبيرة من مخلفات الموائد.. خبز ولحم وجبن، وحملها في صحفة إلى

ماتيتزا. وبعد أن إلتهمت الفتاة الطعام بشراهة، قالت وهي تضع الصحفة بعيداً:

– حمداً لله.. ما أبسط الأشياء التي تحول تعاسة الإنسان إلى سعادة!

ونظر إيليا إليها في صمت.. وقالت الفتاة وهي تتنهد:

– بقدر حاجة الإنسان إلى شيء، يجب أن يدفع الثمن!

– ماذا تقصدين يا ماتيترا؟

– أعني أن على الإنسان أن يدفع الثمن الذي يتناسب مع حاجته إلى شيء ما..

– يدفعه لمن؟

– لله..

ولم يقل إيليا شيئاً وإنما تعجب في نفسه من هذه الفتاة التي لا تكف عن ترديد إسم الله وهي تكسب قوت يومها ببيع جسدها..

وعادت هي تقول:

– أتعرف فيم كنت أفكر وأنا ألتهم الطعام؟ كنت أفكر في الفتاة ماشأ.. إبنة الإسكافي

برفشكا. إنها تعيش هنا.. معك ومع ياكوف. وسوف ينتهي أمرها إلى أن تكون مثلي.. تخرج في الطرقات لتبحث عن الطعام بالثمن الباهظ.. أإن الناس يسيرون في الطرقات، أما نحن، فإننا نزحف فيها على بطوننا.

وبعد برهة من الصمت عادت تقول:

– لسوف تكبر ماشا وتبلغ مرحلة الأنوثة بعد عام أو عامين، وقد حاولت أن أبحث لها

عن عمل شريف، ولكنني لم أنجح.. إنها لا تحسن القيام بعمل يحميها من آثام الناس.. إن الذين أسألهم عملاً لها يقولون لي.. عليك ببيعها.. إن هذا أفضل مصير لها.. يجب أن تباع ماشا لرجل عجوز حتى تضمن طعامها وثيابها وسقفاً يحميها من الشارع.

ثم أخفت ماتيتزا رأسها بين يديها, وتمتمت قائلة:

– يا إلهي.. يا إلهي رحمتك..

وقال إيليا في ضيق شديد:

– كيف ترددين إسم الله دائماً وأنت غارقة في هذه الحياة الآثمة؟

– فنظرت ماتيتزا إليه برهة في صمت، ثم هزت رأسها وقالت:

– إنني لا أفهمك!

فنهض قائلاً:

– إن كلامي واضح جداً.. إنك بغي.. ومع ذلك لا تكفين عن ترديد إسم الله. إذا

كنت مؤمنة بالله حقاً، فلماذا تعيشين كبغي؟

فهتفت الفتاة قائلة في إحتجاج:

– أوه.. ما هذا الذي تقول؟ إننا، معشر الآثمين، أحوج إلى الله من غيرنا.

فهز إيليا كتفيه وقال:

– هذا هو القناع الذي يضعه الناس على أعينهم ليحجبوا الحقيقة.. إنهم يغالطون أنفسهم.. إن كل إنسان يشكو ويتأوه، ومع ذلك يظل سادراً في غيه –أنهم يخدمون بعضهم البعض– يهملون في واجباتهم.. يسرقون.. يحتالون.. يأثمون، ثم يفزعون إلى الله لينقذهم.. ليشملهم برحمته.. إنني أعرف الحقيقية أعرف أن الناس جميعاً مخادعون.. يخدعون أنفسهم ويحاولون خداع ربهم!.

وحملقت ماتيتزا في وجهه بفم مفتوح وقد امتلأت عيناها بالدهشة وأسرع إيليا إلى الباب ففتحه بعنف، ثم خرج وصفقه وراءه وكان يعلم أنه جرح ماتيتزا في مشاعرها وآلها أشد الألم إلا أنه شعر بالرضى والغبطة، وأحس أنه أسعد حالاً مما كان قبل ذلك بلحظات وبدأ بعد ذلك يتصل بالنساء..

وكانت مغامرته الأولى معهن على النحو التالي: كان يسير عائداً إلى البيت حين اعترضته إحدى بنات الليل قائلة:

– تعال معي يا فتى..

فنظر إليها وتلفت حوله ثم سار بجانبها دون أن يقول شيئاً. إلا أنه ظل مطرق الرأس متلفتاً حوله كأنما يخشى أن يراه أحد يعرفه وقالت الفتاة بعد أن سارا قليلاً:

– إن أجري روبل..

فرد إيليا قائلاً:

– حسناً.. هلم أسرعي..

وسارا في صمته إلى مسكن الفتاة..

وكلفته هذه المرحلة الجديدة من حياته مالاً كثيراً. وكذلك حملته يفكر دائماً في أن تجارته الضئيلة هذه لن تتيح له يوماً تحقيق هدفه في حياة نظيفة مستقرة. وخطر له ذات مرة أن يخدع عملاءه ببيع سلعة عن طريق اليانصيب، ولكنه رأى أن هذا الأمر لا يستحق التعب، فقد كان عليه في هذه الحالة أن يهرب من رجال الشرطة أو يرضيهم ويرشوهم، وهو لا يرضى لنفسه هذا الوضع. إنه يريد أن يعيش مرفوع الرأس بين الناس. وكثيراً ما شعر بالسرور كلما تذكر أنه يرتدي من الملابس أحسن كثيراً مما يرتديه غيره من الباعة الجائلين، وأنه لا يشرب الخمر أو يحتال على الغير.

ولهذا كان يجوب الطرقات بخطوات متزنة وبسمت وقور وبوجه ينم عن الجد، يتحدث قليلاً ويزن كلماته، وينظر بعينيه السوداوين الواسعتين بإحترام إلى العملاء وكثيراً ما تخيل روعة الحياة لو أنه ظفر فجأة بمبلغ ضخم من المال، ألف روبل أو أكثر مثلاً.. وكانت حوادث السرقة تثير اهتمامه إلى حد كبير، ومن ثم كان يشتري الصحف ليقرأها .. وكلما قرأ عن وقوع سارق في قبضة رجال الشرطة، قال لنفسه: إنه جدير بما سيناله من عقاب.. لماذا يقوم بعمل لا يتقنه؟

وفي ذات مرة قال لصديقه ياكوف:

– إن اللصوص يعيشون حياة أفضل من الشرفاء..

وشحب وجه ياكوف وضاقت عيناه ثم قال:

– كان عمك يشرب الشاي في الحانة أول أمس برفقة رجل عجوز من الأتقياء. وقد سمعته يقول لعمك أنه مكتوب في التوراة والإنجيل أن أموال اللصوص تكثر وأن الخطاة في أمان..

فقال إيليا الذي كان ينصت بإهتمام:

– هل أنت واثق مما سمعت؟

– نعم.. هذه هي كلماته وقد قال أنها وردت في نص الكتاب المقدس. والدليل على ذلك أن حالة أبي تزدهر رغم ما يرتكبه من معاصي وخطايا..

فقال إيليا:

– أليس أبوك عادلاً؟

فقال ياكوف وهو يتنهد بعمق ويطرق برأسه:

– إنه أبعد الناس عن العدالة والعجيب أنه انتخب عضواً في مجلس المدينة، لست أدري لماذا لا تتجسم خطايا الإنسان أمام ضميره واضحة مثل البيضة .. أوه.. إنني سقيم من كل شيء إنني لا أفهم شيئاً مما يجري حولي. إنني لست صالحاً للبقاء على قيد الحياة، إنني أكره الحانة وأبي لا يكف عن تأنيبي ودفعي إلى العمل والوقوف وراء منصة الشراب عندما يكون عمك غائباً. إنني أكره هذا العمل.. بل أكره أي نوع من الأعمال الأخرى.

– إذن يجب أن تستكمل دراستك..

– إن الحياة قاسية..

فهتف إيليا قائلاً وهو يشب من الفراش ويمضي إلى النافذة التي وقف عندها ياكوف:

– قاسية بالنسبة لك؟ إنك مجنون! إذن ماذا أقول أنا؟ أنا الذي لا أملك شيئاً في الحياة؟ لسوف تمتلك البيت والحانة عندما يشيخ والدك. سوف تكون السيد هنا! أما أنا.. ماذا سيكون مصيري؟ إنني أسير أمام واجهات المتاجر وأرى الملابس والقمصان والصداري والساعات دون أن

أتمكن من شراء شيء أنني لن أستمتع يوماً بإمتلاك ساعة مثلاً وأنا أتمنى أن يكون لي أشياء جميلة تجعل الناس ينظرون إلي بإعجاب؟ إنني لست أقل شأناً منهم.. لست أسوا أخلاقاً منهم.. بل إنني أفضل من الكثيرين.. إن اللصوص يملأون المدينة، ومنهم من ينتخب عضواً في مجلسها ويمتلك حانة.. لماذا يكون للصوص كل هذا الحظ؟ إنني أريد أن يكون لي نصيب منه.

ونظر ياكوف ملياً إلى وجه صاحبه ثم قال بوضوح تام:

– أسأل الله ألا يتحقق لك هذا..

فهتف إيليا قائلاً في إهتياج:

– لماذا لا؟!

– لأنك جشع.. والرجل الجشع لا يقنع بشيء..

فأرسل إيليا ضحكة جافة وقال:

– لا شيء يقنعني!.. إذن إطلب من أبيك أن يعطيني نصف ما سرقه هو وعمي من العجوز ميريمي وأنا أقنع..

فأسرع ياكوف نحو باب الغرفة.. ولكن إيليا أمسك بذراعه وقال في قلق:

– إنتظر.. إلى أين أنت ذاهب؟

فهمس ياكوف قائلاً في حدة:

– دعني وشأني.

– أرجوك أن تنتظر.. لا تغضب مني.. فتلك هي الحقيقة..

– إنني أعرف..

– أتعرف.. من قال لك؟

– إن الناس جميعاً يتحدثون عن هذا الأمر..

– هه! إن الذين يتحدثون عن هذه السرقة ليسوا أحسن حالاً..

وأرسل ياكوف نظرة توسل إلى إيليا ثم قال:

– لم أستطع أن أصدقهم في أول الأمر.. ظننت أنهم يقولون عن أبي هذا كله بدافع الحسد، ولكنني بدأت تدريجياً أصدقهم وإذا كنت أنت أيضاً..

ثم لوح بيده، وتهالك على أقرب كرسي إليه، وجلس إيليا على حافة الفراش مطرق الرأس لا يدري كيف يواسي صاحبه. وعاد ياكوف يقول معاتباً:

– إذن فأنت تحسب حياتي خالية من المتاعب!

فقال إيليا ببطء:

– ليس هناك من تخلو حياته من المتاعب ولكن العزاء الوحيد أن الإنسان يرى الشر والسوء في كل مكان ينظر إليه..

وبدون أن يرفع ياكوف عينيه قال متردداً:

– هل أنت واثق.. واثق مما تقول عن أبي؟

– نعم.. لقد اختلست النظر إليها من ثقب الباب عندما دخلا على العجوز ميريمي وهو يحتضر.. رأيتهما وهما يشقان الحشية ويدسان المال في جيوبهما، ثم يخيطانها كما كانت.. وكانت أنفاس العجوز ميريمي لا تزال تتردد.

– إذن فقد رأى قبل أن يموت، أمواله التي ادخرها من بيع القمامة وهي تسرق..

– لا شك في ذلك..

ونهض ياكوف متهدل الكتفين، ومضى إلى الباب قائلاً:

– طاب مساؤك..

– لا داعي لأن تحزن كل هذا الحزن يا ياكوف..

وشعر إيليا بعد إنصراف ياكوف، بالألم يعتصر قلبه، وبالغضب الشديد من عمه ومن بتروشكا الخمار، ومن جميع أمثالها.. إن شاباً مثل ياكوف لا يستطيع أن يعيش بين أمثال هؤلاء الناس. أنه طيب القلب..

نظيف.. عطوف وإن إيليا ليذكر تجاربه مع الناس، وأنه من ثم ليجد أنها كافية لإنحرافهم جميعاً في بحار القسوة والإثم والأنانية والخداع..

ولما ضاق صدره، نهض وغادر البيت إلى الطرقات.. وظل يسير من شارع إلى آخر وهو عاجز عن التخلص من هذه الأفكار السوداء التي كانت تملأ نفسه بالحزن والشعور بالغثيان. لابد أن هناك شيئاً طيباً في هذه الحياة.. ليس من المعقول أن يكون الناس جميعاً أشراراً خاطئين.. لابد أن هناك أناساً طيبين، وتصرفات طيبة وألواناً طيبة من المباهج والمسرات، فلماذا لم يتصل بهؤلاء الناس.. لماذا لم ير في حياته إلا الأشرار والآثمين؟ ما نوع هذه القوة التي تدفع به دائماً إلى طريق الظلمات والشرور والآثام!.

ولما وجد نفسه خارج المدينة وهو غارق في أفكاره هذه، تلفت حوله، وشعر بالخوف يملأ نفسه فجأة.. الخوف من الظلام.. والوحدة والمكان الموحش.. ودفعه هذا الخوف إلى الجري.. الجري نحو البيت دون أن يجرؤ على مجرد النظر إلى الوراء.

الفصل الثالث

مضت أيام قبل أن يلتقي إيليا ببافيل جراشوف. وكان الوقت مساء، وندف من الثلج تتأرجح ببطء في الهواء البارد، وتتألق في الأضواء المنسابة من مصابيح الشارع. وكان بافيل لا يرتدي – رغم الجو البارد – غير صديرية من القطن وسراويل مشدودة إلى خصره بحزام جلدي. وكان يسير متمهلاً، متهدل الكتفين، عيناه على الأرض، ويداه في جيوب سراويله.. فلما لحق به إيليا وتحدث إليه رفع بافيل عينيه ونظر في وجه صاحبه، وقال ايليا وهو يسير بجواره:

–كيف حالك يا بافيل؟

– لا يمكن أن يكون أسوأ.. كيف حالك أنت؟

– لا بأس..

وبعد أن سارا في صمت بضع خطوات، قال إيليا:

– لماذا لا تزورنا؟

– ليس لدي وقت... إنني لا أكاد أجد وقت فراغ كما ترى..

فرد عليه إيليا بلهجة عتاب قائلًا:

– يمكنك أن تدبر وقت فراغ إذا أردت..

– لا داعي للعتاب.. إنك تريد مني أن آتي وأزوركم. ولكنك لم تفكر يومًا في الحضور لزيارتي.. بل إنك لم تسألني عن مكان إقامتي..

فابتسم إيليا وقال معتذرًا:

– نعم.. هذا حق..

– إنني أعيش بمفردي.. بلا أصدقاء.. لا أرى أحد يهمه أمري. إنني كنت مريضًا وأمضيت في المستشفي ثلاثة أشهر لم يزرني خلالها أحد. أصبت بنزلة برد وأنا سكران. ثم أصبت بالتيفود. ولكن الآلام الشديدة أحسست بها وأنا في دور النقاهة.. كنت أمضي الأيام الطوال راقدًا بمفردي حتى خيل إلي أنني ملقي في حفرة كأي جرو لا حاجة لأحد إليه. ولولا الكتب التي كان الطبيب يأتيني بها لأقرأها، لمت كمدًا.

– أكانت كتبًا جيدة؟

– دواوين شعر.. لرمنتوف وبوشكين. وكانت بعض قصائدها تجعلني أحس كأني أقبل على الفتاة التي أحبها، وبعضها الآخر يقدح في قلبي شرارة من النار والوهج.

وتنهد إيليا قائلًا:

– لقد فقدت هوايتي للقراءة.. إن ما يقرأه الإنسان شيء، وما يراه في الحياة شيء آخر..

وتوقف بافيل أمام مشرب وقال:

– هلم نجلس هنا قليلًا.. إنني على موعد، ولكنه لم يأزف بعد..

ودخلا معًا.. وقال بافيل وهو يرمق صاحبه باسماً:

– إننا لم نكن صديقين حميمين يا إيليا.. كنا دائمًا على خلاف ولكنني أشعر بالسرور كلما رأيتك.

– وهذا هو نفس شعورى يا بافيل..

وجلسا إلى أقرب مائدة.. وبعد برهة من الصمت قال إيليا:

– أين تعمل الآن؟

– عدت للعمل في المطبعة..

– أهو عمل شاق؟..

– ليس العمل شاقًا.. ولكنه الشعور بالقلق..

وأحس إيليا بشيء من الرضى وهو يرى صديقه الذي كان دائم الابتهاج، لا يبالي شيئًا، محزونًا مكتئب السمات. وتساءل في نفسه عن سر هذا التحول. وقال:

– ألا زلت تكتب شعرًا؟

– ليس الآن.. ولكنني كتبت كثيراً في المستشفى. وقد أعجب به الطبيب وقرظه. بل لقد سعى إلى نشر قصيدة لي في إحدى الصحف.

فهتف إيليا قائلاً:

– آه..! أي نوع من الشعر تنظم.. أسمعني بعضاً منه.

فنظر بافيل إلى قلح البيرة أمامه ثم قال:

– إنني لا أتذكر شيئًا كثيراً.. آه.. أنتظر.. إنني أشعر أحيانًا كأن خلية من النحل تطن في رأسي.. وتسري البرودة في جسمي.. وأشعر كأني سأنفجر.. وتنهمر الدموع من عيني.. وأتمنى لو استطعت أن أقول ما يختلج في أعماق نفسي، ولكنني أعجز.. إن في أعماق نفسي أشياء كثيرة ورائعة، والتي أعجز عن نقلها إلى الورق..

فقال إيليا بلهفة:

– أرجوك أن تسمعني شيئًا..

– إنها قصائد بسيطة.. كلها عن نفسي..

ثم تلفت حوله وبدأ يلقي بعضًا منها على مسامع إيليا قائلاً:

الليل.. واليأس.. ومن خلال الزجاج المغبر...

يسطع قمر مريض على درب قذر..

ويلقي شعاعه على أرض موحلة..

وفوق جدران رطيبة..

ويرسم الظلال السوداء على باب..

يؤدي إلى قاعة مهجورة باردة..

أجلس فيها وحيداً.. صامتاً.. عاجزًا عن النوم..

وصمت بافيل برهة قبل أن يستطرد قائلاً:

إنني مختنق بالحياة.. مسحوق.. مضروب..

طعنة في قلبي مرة.. وضربة على ظهري أخرى ..

وحتى الأمل الوحيد الذي داعبني.. تحطم..

ولم يبق لي في الحياة غير كأس شراب..

تلمع بخفوت في ضوء القمر..

وتبتسم كصديقة وأنا أمد إليها يدي..

حسناً.. لأضمد جراحي بالشراب..

لأغلف به عقلي.. لأطرد به آلامي..

وفي أعماق الغيبوبة أنعم بالراحة..

فلماذا لا أشرب كأسًا أخرى؟!..

ليمتنع عن الشراب القادرون على النوم..

أما أنا.. فإني مدفوع إليه بالألم..

ولما فرغ من الإلقاء، نظر في رفق إلى إيليا وقال له:

– معظم قصائدي على هذا النحو..

وظل إيليا يحملق إليه في دهشة الذي لا يكاد يصدق أذنيه.. وأخيراً تمتم قائلاً بذهول:

– إن هذا عجيب يا بافيل.. لقد جعلتني أشعر بالرغبة في البكاء.. أسمعني هذه القصيدة مرة أخرى.

ورفع بافيل رأسه بسرعة ونظر بإبتهاج إلى صاحبه ثم قال:

– أأعجبتك حقاً؟

– جداً.. لا داعي لأن أكذب عليك..

ولما أعاد إلقاءها، قال له إيليا:

– أسمعني قصيدة أخرى..

فقال بافيل:

إن قدمي ثقيلتان..

ورأسي مطرق..

باليأس والحزن..

فإلى أين المسير؟

يا أرض بلادي..

أنيري لي الطريق..

فإني وقعت على الأرض..

تحت شجرة وارفة..

وضغطت بخدي على الثرى..

وسمعت بقلبي الواهن هذا النداء..

تعال إلي!..

وصمت بافيل فجأة، ثم قال لإيليا:

– إيليا.. تعال معي. إنني لا أريد الإفتراق عنك الآن..

ونهض إيليا، وسار مع صاحبه في طرق ملتوية مظلمة. و قال له إيليا متسائلاً:

– إلى بيت سيدوريكا.. أتعرفها..

فضحك إيليا وقال:

– نعم.. إننا جميعًا سرنا في مثل هذه الطرقات.

فقال بافيل في رفق:

– نعم.. نعم.. ولكنني ذاهب إلى هناك لسبب آخر.. سبب لا أعرف كيف أذكره لك؟ حسناً.. إن لي صديقة في هذا البيت.. إنتظر حتي تراها.. لسوف تحس كأنك في الجنة وأنت معها.. كانت خادمة في بيت الطبيب الذي أهتم بأمري وأنا في المستشفي. وأعتدت أن أذهب إلى بيته

لأستعير منه بعض الكتب وأرد الكتب الأخرى التي فرغت من قراءتها. وكانت فيرا – خادمة الطبيب – تستقبلني بحرارة وتضحك في وجهي، وتقبلني.. لقد سلمت لي نفسها بلا أدنى تردد.. وكثيراً ما كنا نمضي الساعات نطارح الغرام الملتهب في غرفة الاستقبال. وفاجأتنا زوجة الطبيب ذات يوم، وجن جنونها، وطردت فيرا من البيت فوراً، فأخذتها لتعيش معي. ولكنني كنت متعطلاً.. ولما بعت كل شيء للحصول على لقمة العيش، هربت فيرا وأختفت أسبوعين، ثم عادت متألقة بملابس فاخرة وحلي ثمينة.

– وضربتها.. ضربتها بقسوة حتى كادت تموت بين يدي..

– وهل هجرتك بعد ذلك؟

لا.. لو أنها هجرتني لقتلت نفسي.. أما هي فقد قالت لي: «إما أن تقتلني وتريحني أو تكف عن ضربي.. إنني وهبتك قلبي.. ولن أهبه لأحد غيرك مهما حدث».

– وماذا فعلت؟

– فعلت كل شيء لأمنعها من السير في هذا الطريق.. ضربتها.. حاولت إقناعها، بينت لها النهاية المؤلمة التي سوف تنتظرنا.. ولكن.. ما جدوى هذا كله ما دمت عاجزاً عن إعالتها؟

– أليست راغبة في العمل؟

– لا.. تقول أنها لو عملت وتزوجنا فسيكون لنا أبناء.. فمن يعولهم؟ إنها تفضل هذه الحياة السهلة على العمل والزواج وإنجاب الأبناء..

ففكر إيليا برهة ثم قال:

– هذه وجهة نظرها على كل حال.

وصممت بافيل برهة، ثم توقف وأمسك بذراع صاحبه وقال وهو يقرض أسنانه:

– كلما تذكرت أن شخصاً آخر يقبلها أحس كأن قضيباً من الحديد المنصهر ينفذ في قلبي..

– ألا تستطيع الإنفصال عنها..

فصاح بافيل منفعلاً:

– ماذا؟ أنفصل عنها؟

وأدرك إيليا سر إنفعال بافيل وهو ينطق بهذه الكلمات حين رأى الفتاة!

لقد وصلا إلى منزل من طابق واحد في أطراف المدينة، كانت نوافذه الست محكمة الإغلاق، مما جعله يبدو وكأنه مخزن مستطيل للمحصولات، وكانت الثلوج تتراكم عليه شيئاً فشيئاً كأنما تحاول أن تخفيه عن الأنظار.

وقال بافيل وهو يطرق الباب:

– إنه منزل من طراز خاص. وإن سيدوريكا تسمح بإقامة هؤلاء الفتيات لديها مقابل خمسين روبلاً تدفعها الواحدة في الشهر. وعدد الفتيات المقيمات أربع فقط.. وصاحبة البيت تبيع – طبعاً – المشروبات والمأكولات للعملاء الذين يترددون على الفتيات. وهي لا تشدد رقابتها على نزيلاتها، وإنما تتركهن يخرجن ويأتين كيفما يرغبن. إن كل ما يهمها هو مبلغ الخمسين روبلاً الذي تدفعه الفتاة كل شهر. والفتيات محبوبات جدًا من الرجال، وفي مقدور كل منهن أن تحصل على مبلغ عشرين روبلاً في الليلة إذا شاءت. بل إن ولمبيادا – إحداهن – تستطيع أن تحصل على ضعف هذا المبلغ.

وقال ايليا وهو ينفض الثلوج عن ملابسه:

– وما هو أجر صاحبتك؟

فهز بافيل رأسه وقال:

– لا أدري.. ولكن أجرها مرتفع أيضاً..

وسمع الإثنان صوتاً من وراء الباب يقول هامساً:

– إنني بافيل يا سيدوريكا..

وفتح الباب وظهرت سيدة في منتصف العمر، كبيرة الأنف مكتنزة الوجه، قالت لبافيل وهي ترفع سراجها إلى وجهه:

– طاب مساؤك يا بافيل.. إن فيرا تنتظرك بفارغ الصبر.. من معك؟

– صديق..

– وسمع إيليا صوتاً نسائياً صافياً يأتي من نهاية الممر الطويل.

– من هذا؟

فقالت صاحبة البيت:

– إنهما ضيفان لفيرا يا أولمبيادا..

وقالت صاحبة الصوت النسائي الصافي:

– ضيفان لك يا فيرا..

وفتح باب في الجانب الأخر من طرف الممر، وظهرت في بؤرة الضوء فتاة دقيقة الجسم بيضاء البشرة والثوب. ينسدل شعرها الذهبي الناعم على كتفيها.

وقالت بصوت عاتب لبافيل:

– لقد تأخرت كثيراً..

ثم وضعت ذراعيها على كتفيه وشبت على أطراف قدميها لتنظر إلى إيليا الواقف وراءه، وهنا قال بافيل:

– إنه صديقي إيليا لييف.

– أهلاً وسهلاً..

وتناول إيليا اليد الممتدة إليه، ونظر بإعجاب شديد إلى الفتاة وقد بهره جمالها الفاتن. ولما أفسحت له الطريق ليدخل غرفتها، قال وهو ينحني بإحترام:

– تفضلي بالدخول أولاً..

فأرسلت ضحكة قصيرة رنانة بالبهجة والصفاء وقالت:

– يا لك من شاب لبق مهذب..

وضحك بافيل بدوره وقال:

– لقد أذهلته بجمالك يا فيرا.. أنظري كيف وقف متسمر في مكانه مثل الدب أمام زنبيل من الشهد.

فقالت وهي تبتسم لإيليا:

– أحقاً؟

ورد إيليا على إبتسامتها بمثلها قائلاً:

– نعم.. لقد أذهلتني بروعة جمالك..

وضحك بافيل عالياً وقد برقت عيناه زهواً ثم قال محذراً في دعابة:

– حاول أن تقع في غرامها وأنا أقطع رقبتك..

وكان سعيداً حين رأى إيليا مذهولاً بجمال صاحبته فيرا، كانت هذه جميلة حقاً.. دقيقة الملامح، ممتلئة الشفتين، واسعة العينين، ذهبية الشعر،

باسمة السمت، رشيقة القوام، لا ترتدي غير غلالة حريرية بيضاء لا تكاد تخفي شيئاً من جسمها الممشوق.

ولم يستطع إيليا أن يحول نظراته عنها وهي تتحرك برشاقة داخل الغرفة لتعد الشاي والحلوى دون أن تكف عن الثرثرة بمرح والنظر إلى بافيل في حب وشغف.

وكانت الغرفة صغيرة أنيقة، كل شيء فيها نظيف ومرتب.. المتكأ.. والمقاعد.. والفراش، والمائدة المستديرة في الوسط، والحشايا الأنيقة على الأرض فوق سجادة من الصوف السميك، ثم أدوات الشاي الخزفية الفاخرة، والأطباق.. وأخيراً الحلوى والشطائر والخبز والشراب..

ولم يستطع إيليا أن يملك نفسه من الشعور بالحسد لبافيل الذي كان جالساً إلى المائدة مشرق الوجه بالسعادة، يردد كلمات عذبة:

– إنني أشعر كأني أسبح في ضوء الشمس عندما أجلس معك يا فيرا. إن آلامي وأحزاني تتلاشى، وتتجدد آمالي وأحلامي. إن جمالك متألق كالنجوم في السماء. إنك نبضة الحياة في قلبي.

فقالت فيرا بإبتهاج:

– ما أجمل هذا الكلام..

وقال بافيل لإيليا:

– كف عن الحملقة إلى فيرا يا إيليا.. إبحث لك عن فتاة أخرى.

ورنت فيرا الي إيليا وقالت باسمة:

– فتاة جميلة!

فابتسم إيليا وقال:

– لا أظن أني سأجد فتاة أجمل منك..

فردت فيرا برقة:

– أخشى أن تكون مبالغاً يا صديقي..

وقطب بافيل جبينه فجأة، ثم قال بصوت يقطر بالمرارة:

– إن كل شيء يبدو رائعاً في لحظة.. وفي اللحظة التالية يتحول إلى عذاب حين أتذكر.. أتذكر الواقع.. وكأن شخصاً ما أغمد سكيناً في قلبي.

فقالت فيرا وهي تنكس رأسها:

– لا داعي لأن تتذكر..

ولاحظ إيليا إحمرار أذنيها بشدة.. واستطردت هي تقول:

– يجب أن تردد لنفسك في كل مساء هذه العبارة يا بافيل: إن اليوم الذي مضى هو يومي السعيد، لأنها لي وحدي.. إنني أتألم مثلك يا بافيل.. ولكنني أنسى آلامي حين ألقاك وأسعد بك.

وقطب بافيل جبينه وهو ينصت لها، وتمنى إيليا أن يقول شيئاً يمكن أن يخفف من آلام هذين العاشقين.. وأخيراً قال:

– ماذا في وسع الإنسان أن يفعل إذا لم يكن للعقدة حل؟ كل ما أستطيع أن أقوله لكما هو أنه لو كان معي مبلغ ألف روبل لأعطيته لكما .. خذا هذا المبلغ من أجل الحب، لأني أراه حباً نظيفاً، صادقاً، متبادلاً.. ولا شيء في الحياة يساوي هذا اللون من الحب.

ونهض واقفاً في غمرة إنفعاله، وتلقى نظرات الفتاة المفعمة بالشكر والعرفان، وأومأ إلى بافيل المبتسم لكلماته، ثم أردف قائلاً:

– هذه أول مرة أرى فيها الحب الحقيقي الصادق متبادلاً بين اثنين، إنك شاب محظوظ يا بافيل، وأعترف أني أحسدك وأغبطك.. أما أنا فإنني أشرب من نفس النهر الذي يغتسل فيه حثالة الناس.. أنا الله كفيل بتطهير مياه مثل هذا النهر.

وصاح بافيل قائلاً:

– مرحى يا إيليا.. وشكراً..

وقالت فيرا:

– إنك صديق طيب القلب يا إيليا..

وأومأ إيليا برأسه وقال:

– إذن قدمي لي قدحاً من الشاي

وقال بافيل وقد توهج وجهه بفعل الخمر، وكان يروح ويجيء في الغرفة:

– اللعنة على كل شيء.. إن الحياة جميلة ما دام فيها أناس أمثالك.. لقد أحسنت بدعوتك إلي هنا يا إيليا.. لنشرب تكريمًا لك.

وقالت فيرا مشيرة إلى بافيل:

– لقد شعشعت الخمر في رأسه. وهو دائماً هكذا.. إما أن يحلق في السماء، أو يهوي إلى القاع من فرط اليأس.

وفي تلك اللحظة سمع الجميع نقراً على الباب وصوتاً نسائياً ناعماً يقول:

– هل تسمحين لي بالدخول يا فيرا؟

فردت فيرا قائلة:

– آه.. تفضلي بالدخول.. هذه أولمبيادا يا إيليا.. جارتي وصديقتي..

ودخلت أولمبيادا.. ورآها إيليا إمرأة في نحو الثلاثين من العمر طويلة القامة، عريضة الكتفين، خمرية اللون، سوداء الشعر والعينين، بارزة الصدر تتفجر الأنوثة من نظراتها وإبتسامة شفتيها، كما ينساب العطر من غلالتها الشفافة.

قالت في شبه إعتذار:

– أحسست بالوحدة والعزلة وانا أسمعكم تتحدثون وتضحكون، فرأيت أن أنضم إليكم.. وها أنا أرى شاباً بلا سيدة، ومن ثم فسوف أتولى أمره..

ثم جلست بجوار إيليا وأردفت قائلة:

– ألا تشعر بالضجر من غزلهما؟ ألا تحس بالغيرة؟

فقال إيليا مرتبكاً:

– من العسير أن يضجر الإنسان منهما..

وابتسمت أولمبيادا، ثم تبادلت حديثاً قصيراً مع فيرا عن بعض الشئون الخاصة، ثم أردفت قائلة:

– إنني لا زالت أفكر في قبول عرض بولكتوف والحياة معه.. ما رأيك؟

واكتفى إيليا بالإنصات، مستمتعاً بعطر أولمبيادا، وجمالها.. وقالت فيرا:

– لا أستطيع أن أنصحك بشيء يا أولمبيادا.

– إنه غني عجوز.. ولكنه بخيل. وقد طلبت منه أن يودع في البنك بإسمي مبلغ خمسة آلاف روبل، ثم يعطيني ثلاثمائة كل شهر، ولكنه وافق على ثلاثة آلاف روبل في البنك، ومائتي روبل كل شهر.

فقالت فيرا:

– لا داعي للحديث في هذا الأمر الآن يا عزيزتي..

– صدقت..

ثم التفتت إلى إيليا وأردفت قائلة:

– هلم نتحدث معاً أيها الشاب.. إنني معجبة بك.. فإن لك وجهاً وسيماً وعينين معبرتين.. ما رأيك في هنا؟

فغمغم إيليا قائلاً وهو يشعر أن هذه المرأة تلفه بسحرها وجمالها:

– لا شيء.

– لا شيء.. حسناً.. بماذا تشتغل؟

– أشتغل بائعاً متجولاً..

– أحقاً؟ ظننتك موظفاً في بنك أو مساعداً في متجر كبير!

فقال إيليا وهو يشعر بالخدر من عطر أولمبياد الفواح:

– إنني أحب أن أبدو نظيفاً.. وإني مسرور برأيك في..

– وإني سعيدة بمعرفتك.. هل تحسن التخمين؟

– ماذا تقصدين؟

– ألا تخمن أننا غير مرغوبين هنا؟

ثم غمزت بعينيها الى حيث جلست فيرا بجوار بافيل..

وغمغم إيليا قائلاً في خجل:

–كنت على وشك الرحيل..

وقالت أولمبيادا:

– هل تسمحين لي بسرقة ضيفك منك يا فيرا؟

فضحكت فيرا قائلة:

– يمكنك إذا سمح لك بذلك..

وقال إيليا مرتبكاً:

– إلى أين؟

وقال بافيل:

– أذهب معها دون أن تسأل أيها الأحمق..

ونهض إيليا مترنحاً.. وتناولت أولمبيادا ذراعه وقالت وهي تخرج به من الغرفة:

– إنك محتاج إلى الترويض، وأنا متقلبة الأطوار وأحب أن أفرض رأيي على الغير. فإذا أردت أن أطفئ الشمس، صعدت إلى السطح وأخذت أنفخ حتى ينقطع نفسي، هذه طبيعتي.

وسار إيليا معها دون أن يفهم شيئاً.. ذلك أن عطرها وملامسة جسمها لجسمه جعلاه في حالة تشبه الخدر.

وانغمر إيليا في علاقته بأولمبيادا. وأحس أن هذه العلاقة قد ملأت قلبه بالرضى عن نفسه وعن الحياة، بل خيل إليه أنه وجد في أولمبيادا تعويضاً عن الآلام التي ملأت بها الأقدار قلبه الصغير. وكلما تذكر أن هذه المرأة الجميلة الأنيقة تغمره بالقبلات والعناق بمحض رغبتها ودون أن تسأله شيئاً.. ازداد إحساساً بالرضي عن نفسه. وكانت أولمبيادا تقول له وهي تتخلل شعره الناعم بأصابعها:

– يا فتاي الحبيب! إنني أزداد حباً لك يوماً بعد يوم. إن لك قلباً طموحاً لا يرضى بالهوان، ولا يهدأ حتى يظفر من الحياة بما يريد. وهذه طبيعتي أيضاً. ولو كنت أصغر سناً لتزوجتك.. ولعشنا معاً في سعادة دائمة.

وكان إيليا يحترمها.. فقد وجد أنها بارعة، وراجحة التفكير رغم هذه الحياة التي تحياها. وكان جسمها قوياً شاباً وصوتها صافياً عذب الرنين.

إلا أنه كان يفاجأ، أحياناً، عندما يزورها في غرفتها على غير موعد، برؤيتها مكومة في فراشها، شعثة الشعر، شاحبة الوجه، ذابلة العينين، وكأنما داستها أقدام في زحمة الحياة. ويحس بالنفور يملأ قلبه وهو واقف ينظر إليها، دون أن يجد ما يقوله لها. وتدرك هي ما يجول في ذهنه، فتلتف في بطانيتها وتقول له آمرة:

– أذهب إلى غرفة فيرا وانتظرني هناك..

ثم تردف قائلة قبل أن يغادر الغرفة:

– أطلب من الخادمة العجوز أن تحضر لي ماء بارداً ومعه قطعة ثلج..

ويذهب إيليا إلى الغرفة الصغيرة الأنيقة الخاصة بفيرا. فإذا رأت هذه إمارات الإضطراب على وجهه قالت له بإبتسامة عذبة:

– إن أختنا لا تخلو من الآلام والأحزان..

ويتنهد إيليا قائلاً:

– آه يا فيرا.. إن آثامك مثل الثلوج.. تذوب أمام حرارة إبتسامتك.

– يا للمسكين بافيل.. يا له من بائس..

وكان إيليا يشعر نحو فيرا بالمودة والعطف. ولشد ما كان يحزنه أن يراها في عراك وخصومة مع بافيل، ومن ثم كان يبذل كل جهده لإصلاح الأمور بينهما. وكان يستمتع بالجلوس في غرفتها ومراقبتها وهي تمشط شعرها الذهبي أو ترقق أثوابها، أو تغني لنفسها، وفي مثل هذه اللحظات كان يزداد عطفه عليها كما يزداد إحساسه بتعاستها. فإذا حاول أن يخفف عنها، قالت له بصوت حزين:

– إننا لا نستطيع أن نستمر على هذه الحال يا إيليا. لانستطيع. وهذا الوضع لا يهمني كثيراً، فقد حلت على اللعنة إلى الأبد. ولكن ما ذنب بافيل في إلتصاقه بي ومزج أقداره بأقداري؟

وتدخل أولمبيادا في سكون وقد بدت في جمالها كأنها شعاع هادئ من أشعة القمر. وتقول لصاحبها إيليا:

– تعال يا حبيبي وأشرب معي الشاي. أما أنت يا فيرا، فيمكنك أن تأتي بعد قليل..

ويمضي إيليا معها مذهولاً لا يكاد يصدق أن هذه المرأة الأنيقة المنتعشة هي نفس المرأة التي تركها قبل ذلك بلحظات ذابلة مكومة مسحوقة تحت الأقدام.

وقالت له وهي تشرب الشاى معه:

– من المؤسف أنك تركت المدرسة قبل الأوان. يجب أن تقوم بعمل آخر غير بيع السلع في الطرقات. أنتظر حتى أمضي للحياة مع العجوز بولكتوف وسوف أقدم لك كل المساعدات الممكنة لتحقيق أهدافك.

– هل قبل أن يعطيك الخمسة آلاف روبل؟

– سوف يقبل رغماً عنه..

فقال إيليا بحقد شديد:

– لو جئت يوماً ووجدته معك هنا فسوف أقطع رقبته.

وضحكت قائلة:

– لا تقطعها قبل أن أظفر منه بالمال..

* * *

وحقق لها التاجر العجوز طلباتها.. ولم يلبث إيليا غير أيام حتى أصبح يزورها في مسكنها الجديد الأنيق، حيث كان يجلس مذهولاً بروعة الطنافس والأثاثات. وكانت أولمبيادا تعامله وتتحدث إليه كأنما لم يحدث في حياتها شيء.. إنها نفس أولمبيادا التي تعرف بها عند فيرا.

قالت له ذات ليلة:

– إنني الآن في السابعة والعشرين من العمر.. وعندما أبلغ الثلاثين سيكون معي خمسة عشر ألف روبل. وعندئذ سأهجر هذا العجوز اللعين، وأعيش حرة بلا قيود.. تعلم مني كيف تقتنص الفرص من مخالب القدر يا ولدي الحبيب؟

وتعلم إيليا منها كيف يسعى إلى تحقيق رغباته بلا تردد أو تخاذل إلا أنه كان يشعر بالمهانة والإذلال كلما تذكر أن هناك من يشاركه فيها.. وفي اللحظة التالية تهدأ نفسه حين يتذكر أنه سيمتلك يوماً متجراً خاصاً به، ومسكناً نظيفاً يستطيع أن يستقبل فيه هذه المرأة الفاتنة. كان يشعر أنه لا يحبها بقدر ما يحتاج إليها.. وهكذا انقضت ثلاثة أسابيع..

الفصل الرابع

عاد إيليا ذات مساء إلى بيت بتروشكا حيث رأى برفشكا الإسكافي والد ماشا، جالساً في غرفته مع ياكوف. وكانت أمامهما زجاجة فودكا. وكان باكوف منبطحاً برأسه على المائدة يقول بصوت مخمور:

– إن الله الذي يعلم كل شيء، يعلم أن أبي لا يحبني، إنه لص. أليس كذلك يا برنشكا؟ ورد الإسكافي قائلاً:

– نعم يا ولدي.. هذه هي الحقيقة وإن كانت محزنة..

– إذن ماذا أستطيع أن أفعل؟

ودهش إيليا وهو يرى صديقه الرقيق ياكوف على هذه الحالة المؤسفة. وأخيراً تقدم إليه وقال في لهجة حاسمة:

– ماذا تفعل هنا يا ياكوف؟

وفزع ياكوف، ورفع رأسه في رعب ثم قال:

– أوه.. حسبتك أبي..

– ماذا تفعل؟.. إنني أسالك..

وقال الإسكافي في إحتجاج:

– دعه وشأنه يا إيليا! إن من حقه أن ينسى آلامه بالشراب.

وقال ياكوف بصوت عال:

– لقد ضربني أبي.. ضربني بقسوة..

وقال برفشكا الإسكافي مؤكداً:

– نعم.. رأيته وهو يضربه، والله على ما أقول شهيد.

وتساءل إيليا:

لماذا ضربه؟ وبهذه المناسبة أين ماشا؟

– لقد بكت من أجل ياكوف حتى تورمت عيناها، ولم تهدأ إلا عندما جاءت ماليتزا وحملتها معها إلى غرفتها.. أما سبب ضرب بتروشكا لإبنه، فهو عمك ترنتي، لقد طلب عمك أن يسمح له بتروشكا بالرحيل إلى كييف ليظفر بالبركة والغفران من رجل تقي صالح هناك.. ووافق بتروشكا فوراً على رحيل عمك، لأن اللص يبتهج بالخلاص من شركائه في الغنيمة. ولما طلب ياكوف أن يذهب مع ترنتي.. رفض بتروشكا، وصمم الفتى على الرحيل، فأنهال بتروشكا بالضرب عليه حتى كاد يقتله.

وقال ياكوف مهتاجاً:

– إنني لن اعيش معه بعد اليوم.. نعم.. لن أعيش معه. لماذا يضربني؟ ماذا فعلت؟

وهز إيليا كتفيه وقد أدرك أنه لن يستطيع أن يفعل شيئاً، ومضى إلى غرفته، وهناك لحق به عمه الأحدب ترنتي يقول بوجه مشرق بالإبتهاج:

– أخيراً آن وقت رحيلي.. يا إله السماء.. إنني أشعر كالسجين الذي حان وقت الإفراج عنه.

ثم أردف قائلاً بصوت هامس:

– إنني سأتركك هنا وحيداً.. ولهذا رأيت.. رأيت..

– رأيت ماذا؟ قل وأسرع..

– رأيت أن أدخر لك مبلغاً من المال يعينك على الحياة أثناء غيبتي...

وأرسل إيليا ضحكة جوفاء خشنة وقال:

– إذن فقد أدخرت مبلغاً من المال يا عمي؟

فقال ترنتي وهو يشيح بوجهه في إضطراب:

– نعم.. و قد قررت أن أتبرع للكنيسة بمائتي روبل، وأترك لك مائة..

فرد إيليا بسرعة:

– مائة.. فقط؟!

ثم أردف قائلاً وقد ثار الغضب في قلبه:

– إنني لن أتناول شيئاً من مالك المسروق..

ففتح ترنتي فمه، ونظر في رعب إلى إيليا ثم قال بخوف:

– إنك كإبني يا إيليا.. وقد ارتكبت هذه الخطيئة من أجلك . أردت أن أحمل لك على مبلغ من المال يساعدك في الحياة أن الله لن يغفر لي هذه الخطيئة إذا رفضت أن تأخذ هذا المال.

فهتف إيليا قائلاً في إستنكار:

– إذن فأنت تريد أن تلقى الله خالص الحساب.. أليس كذلك؟ هل طلبت منك أن تسرق مال العجوز مريمي؟

فقال ترنتي بلهجة مضحكة:

– إنك لم تطلب من أحد أن تولد أيضاً. خذ المال يا بني حتى يستريح ضميري... إن الله لن يغفر لي إذا لم تأخذ هذا المال.

فهز إيليا كتفيه وقال:

– حسناً.. سآخذ هذا المبلغ وإن كان تافهاً.. كنت أتمنى لو كان ألف روبل حتى أستطيع أن أفعل به شيئاً ذا قيمة.

وبعد ساعة، في تلك الليلة، كان إيليا واقفاً أمام باب المسكن الجديد لأولمبيادا. وكان قد قرر أن يطلب منها في تلك الليلة أن تساعده في البحث عن عمل لماشا – كخادمة في أحد البيوت المحترمة – حتى ينقذها من الجو الفاسد الذي تعيش فيه.. لقد خشي أن تعتاد الفتاة على البقاء مع ماتيتزا، فينتهي بها الأمر إلى التسول معها.

وأنتظر أمام الباب فترة طويلة بعد أن طرق عليه بضع مرات. وأخيراً سمع صوتاً متحشرجاً رفيعاً يقول:

– من الطارق؟

وقال إيليا وهو يظن أن المتحدث خادم جديد لأولمبيادا:

– إنني إيليا.

وفتح الباب رجل عجوز مجعد الوجه، غائر العينين، أصلع الرأس، على بشرته آثار جدري قديم. وقال بصوته المتحشرج الرفيع وهو يرفع في يده سراجاً:

– من أنت؟ وماذا تريد؟

– هل أولمبيادا موجودة؟

– لماذا؟

واضطرب وجه إيليا، وشعر بقلبه يغوص بين جوانبه وهو يتذكر أن هذا الرجل الأعجف يشاركه في أولمبيادا الحسناء.

وقال أخيراً:

– إنني بائع متجول!

وطرف العجوز بأجفانه المنحولة وقال:

– وماذا تبيع أيها البائع المتجول؟

–كل شيء.. شرائط وروائح ودبابيس وصابون و..

وقال الرجل ساخراً:

– هه.. شرائط وروائح للجميلات. حسناً.. وماذا تريد أيها البائع المتجول؟

وأطرق إيليا برأسه، وشعر كأن بقعاً سوداء نسجت أمام عينيه. ثم قال:

– أولمبيادا داميلونا..

– وماذا تريد منها؟

– إنها مدينة لي ببعض المال.

وأحس إيليا بالتقزز من الرجل العجوز وبالحقد عليه، وخيل إليه أن صوته الرفيع المتحشرج يخترق قلبه كالسهام.

– مدينة لك ببعض المال! حسنا جداً.

ثم اقترب العجوز بوجهه من وجه إيليا وقال وهو يحملق فيه بعينين كعيني الأفعى:

– وأين الفاتورة؟ سلمني الفاتورة.

فتراجع إيليا في خوف وقال:

– أية فاتورة تعني؟

– فاتورة سيدك الذي أرسلك.. هاتها حالاً.

فصاح إيليا في يأس وقد شعر أن شيئاً رهيباً سوف يحدث:

– ليس معي فواتير.

وفي تلك اللحظة ظهرت أولمبيادا وراء الرجل العجوز، وقالت بهدوء:

– ما هذه الضجة يا بولكتوف؟

– إن هذا البائع المتجول جاء زاعمًا أنك مدينة له ببعض المال يا عزيزتي..

فأزاحت أولمبيادا الرجل العجوز عن طريقها وقالت لإيليا بلهجة جادة وهي تضع يدها في جيب ثوبها الحريري الفاخر:

– ألم يكن ممكناً أن تأتي في وقت آخر لتحصيل مالك؟

وهتف العجوز بصوته المتحشرج الرفيع:

– نعم.. نعم.. إنك غبي.. لا تعرف متى ينبغي تحصيل الأموال.. حمار!

وتسمر إيليا في مكانه وكأنما تحول إلى تمثال من الحجر، أما اولمبيادا فقد قالت:

– لا داعي للصياح يا بولكتوف.. إن صوتك مزعج. كم المبلغ المطلوب أيها الفتى.. أربعة روبلات ونصف؟ هذا هو..

وقال العجوز حين رآها تقدم المبلغ لإيليا:

– والآن هلم أنصرف بسرعة، وحذار أن تأتي إلى هذا البيت مرة أخرى..

ووقف إيليا – بعد أن أغلق الباب في وجهه – مذهولاً لا يكاد يدرك هل هو في يقظة أم في حلم. وكان يمسك بإحدى يديه قبعته، وبالأخرى نقود أولمبيادا. ولما شعر أخيراً بأطرافه تكاد تتجمد من فرط البرد، وضع القبعة على رأسه، وسار مطرق الوجه، محزون القلب، يرى بعين الخيال ذلك العجوز الأعجف وهو يضم فتاته أولمبيادا مستمتعاً بالدفء داخل المسكن، بينما يسير هو، على غير هدي، في الظلام والبرد.

* * *

وفي اليوم التالي أخد إيليا يسير ذهاباً وجيئة في الشارع الرئيسى بالمدينة. وكانت ذكريات الليلة الماضية تستبد بذهنه وتعصر قلبه وتلهث أنفاسه وتلهب جسمه رغم الثلوج المتساقطة حوله.

ومر في طريقه بحانوت صغير محصور في ركن بين كنيسة صغيرة ومنزل كبير. وكانت اللافتة الموضوعة على الحانوت كما يلي:

«ج. ق. بولكتوف»

«بنك رهونات وتجارة نقود من كل الأنواع»

وخيل إلى إيليا أنه لمح الرجل العجوز جالساً وراء مكتب صغير داخل الحانوت، فعاد أدراجه، ووقف ينظر إليه وهو يشعر برغبة ملحة في الدخول وتسوية الحساب معه. وتذكر فجأة أن لديه –كأي بائع متجول – بضع نقود ذات قيمة تاريخية. وقرر أن يتخذها ذريعة لدخول الحانوت وتسوية الحساب مع ذلك العجوز اللعين.

ودخل حاملاً صندوقه وقال بجرأة:

– طاب يومك أيها السيد..

ورفع الرجل وجهه من أيقونة صغيرة كان يفحصها بمنظار مكبر، ثم قال بلا مبالاة:

– ماذا تريد..؟

– ألا تعرفني؟

وعاد الرجل ينظر إليه ويقول:

– ربما أعرفك، وربما لا.. فماذا تريد؟

– لدي كمية من النقود القديمة.

– دعنا نراها..

ولما قدمها إيليا إليه، فحصها الرجل بنظرات عابرة، ثم ألقي بها في وجه إيليا قائلاً بسخرية:

– إنها لا تساوي وزنها رصاصاً.. هلم أخرج ودعني أواصل عملي..

ورفع إيليا قبضته وأهوى بها على رأس العجوز، ثم ألقى بنفسه عبر المكتب وأمسك بالعنق الضامر بين يديه، ورأى العينين الجاحظتين المليئتين بالفزع، ثم سمع الصوت المتحشرج يخرج خافتاً:

– الرحمة.. الرحمة. خذ كل شيء ودعني أحيا..

ولكن إيليا ظل يضغط ويضغط وهو يتمتم:

– أيها العقرب القذر..

وشعر بشيء ينكسر تحت يديه، وبلعاب ساخن يسيل على أصابعه، ولكنه ظل يضغط وكأنه مدفوع بقوة خفية رهيبة لا يرى أو يسمع شيئاً. وأخيراً شعر بجسم العجوز يثقل في يديه، فألقى به وراء المكتب، وإذا هو جثة هامدة.

ونظر إيليا إلى الجثة في رعب وتقزز، ولكنه أحس كأن شيئاً ثقيلاً أزيح عن قلبه.

الفصل الخامس

كانت الثلوج لا تزال تتساقط بغزارة في الخارج. تلفت إيليا حوله، فوجد الحانوت خالياً. وعلى أرضيته لمح إيليا قطعتي صابون وكيس نقود، ولفة أشرطة. وانحنى بسرعة يلتقط هذه الأشياء وهو يعلم أنها سقطت منه. ثم انحنى فوق المكتب وألقي نظرة أخيرة على الرجل العجوز، فوجده لا يزال مكوماً، جثة هامدة، بين المكتب والجدار. ووجد درج النقود مفتوحاً، تتألق فيه قطع النقد الذهبية والفضية مع رزم الأوراق المالية. وفي سرعة بالغة، أخذ الرزم ودسها في جيوبه الداخلية وتحت قميصه. ثم غادر الحانوت متمهلاً.. وبعد خطوات قليلة، غطى صندوق سلعه بقطعة من القماش. وكانت الثلوج تتساقط بغزارة، وراح ينظر إليها في ذهول.. وفجاة أحس بآلام في عينيه، فوضع يده عليها وفوجئ بأنه عاجز عن إغلاقهما.. وتسمر في مكانه مذهولاً منزعجاً. وخيل إليه أن عينيه ستبقيان هكذا دائماً.. مفتوحتين، جاحظتين، مثل عيني بولكتوف، يقرأ الناس فيها سطور الجريمة. ولكن الأجفان لم تلبث أن انسدلت فتلاشى فزعه، وهدأت نفسه، ووقف يتنفس بعمق سعيداً بالظلام المحيط به بعد أن أغلق عينيه.

وسمع شخصاً ما يطلب منه المسير، ففتح عينيه ونظر إليه، فإذا هو رجل طويل القامة يرتدي سترة من جلود الأغنام. وراح إيليا يرقبه حتى أختفي في غلالات الثلوج المتساقطة. وأخيراً ثبت قبعته على رأسه

واستأنف المسير على الأفريز، شاعراً بالألم في عينيه، وبالثقل في قلبه، وكانت كتفاه تختلجان، وأصابعه تتشنج، وأحاسيس التحدي تطرد الخوف من قلبه. ولما بلغ مفترق الطريق، رأى الشرطي بثوبه الرمادي، فتقدم إليه بثبات، وقال له دون أن يفكر فيما يفعل:

– إن الثلوج تتساقط بكثرة!

فرد الشرطي دون إهتمام:

– أحقاً؟ إن الجو لن يلبث حتى يعتدل..

– ترى كم الساعة الآن؟

راح الشرطي يخرج من جيب سترته الداخلي ساعة فضية، وابتهج إيليا بوقوفه بجوار هذا الشرطي الضخم ذي اللحية الصغيرة والوجه العريض. وفجأة وجد نفسه يضحك عالياً، فقال له الشرطي وهو يفتح غطاء الساعة بظفره:

– لماذا تضحك؟

– من الطريقة التي تتراكم بها الثلوج عليك..

– ليس فيها ما يضحك. إن الثلوج تتراكم على كل إنسان في الطريق. أما أنت فيمكنك أيها الفتى أن تجلس في مشرب دافئ.. أنا فقط الذي يجب أن أبقى في مكاني حتى المساء.

وأغلق ساعته. وقال إيليا مشيراً إلى مشرب قريب:

– صدقت.. لسوف أجلس في هذا المشرب.. طاب يومك..

وجلس إيليا في المشرب بجوار النافذة التي يمكن أن يرى منها الكنيسة الصغيرة المجاورة لحانوت بولكتوف. ولكنه لم يستطع أن يرى شيئًا بسبب غلالات الثلوج المتساقطة بلا انقطاع. وراح يتأمل بإمعان قذف الثلوج المتهاوية الكاسية لآثار الأقدام بطبقة كثيفة من الجليد الناعم. وكان قلبه ينبض بقوة وسرعة، إلا أنه كان يشعر بالإنتعاش والبهجة. وهكذا ظل جالساً، بعقل لا يفكر في شيء ينتظر حدوث شيء.

ولما أحضر له النادل الشاي، لم يملك نفسه من سؤاله:

– ألا من أخبار جديدة؟

فرد النادل قائلاً وهو يهرع بعيداً:

– يقال إن الجو سيعتدل بعد قليل..

وراح يشرب الشاي وينتظر.. وتأمل أصابعه.. لا.. ليس عليها آثار من الجريمة.. آه.. إنه يسمع صوتاً يرتفع بهذه العبارة:

– لقد قتل بولكتوف..

ووثب إيليا واقفاً وكأن العبارة نداء موجه إليه. وشعر بالنشاط يدب في المشرب، ورأى الرواد ينهضون ويتجهون إلى الباب. وألقى بقطعة نقود على المائدة، وحمل صندوقه وأسرع خارجاً مع الجميع. وأمام حانوت بولكتوف رأى جمعاً من الناس، ورجال الشرطة يدخلون ويخرجون ويهتفون

إلى بعضهم البعض في إضطراب وقلق. وكان رجل الشرطة الملتحي، الذي تحدث معه إيليا، واقفاً بالباب يمنع المتجمهرين من الدخول، ومتلفتاً حوله بنظرات تنم عن الخوف ووقف إيليا في مكان مرئي من رجل الشرطة، ينصت إلى ثرثرة الواقفين. وكان ثمة رجل من أصحاب الحوانيت المجاورة يقول وهو يتخلل لحيته السوداء بأصابعه:

– عندما عاد غلام الحانوت ظن أن سيده مغشى عليه فقط، فأسرع إلى البقال بيوتر وطلب منه أن يهرع لإسعاف سيده. فما كاد أن يراه حتى أدرك أنه جثة هامدة.. هل تتصور؟ لقد ثبت أنه مات مختنقاً.. جريمة ترتكب في وضح النهار، وفي الشارع الرئيسيّ. لاشك أن للقاتل أعصاباً من فولاذ.

وقال آخر بقسوة:

– إن يد الله واضحة هنا لقد عجزت عدالة الأرض عن الاقتصاص من بولكتوف الذي عاش يرتكب في كل يوم، وفي كل ساعة جريمة من نوع ما.. وهكذا نجحت عدالة السماء في عقابه أخيراً..

– هذه إرادة الله.. ما من شعرة تسقط من رأس الإنسان إلا بأمر من الله.

– يستحق بولكتوف ماحدث له.. فما أكثر ضحاياه الذين تعذبوا على يديه.

وشعر إيليا بفيض من القوة والجرأة يملأ قلبه بالبهجة والرضى بحيث لو سأله أحد في تلك اللحظة من القاتل، لضرب بيده على صدره وقال مزهواً: "أنا القاتل"..

دفعه هذا الشعور إلى شق طريقه نحو باب الحانوت، ولكن الشرطي أمسك بكتفه وقال آمراً:

– إلى أين أنت ذاهب. هلم أبتعد.. وبسرعة، لا شأن لك بهذا.

ودفعه بقوة، فتراجع إيليا إلى الخلف واصطدم برجل من الواقفين، فدفعه هذا بعيداً وهو يقول:

– يبدو أن هذا الشاب سكران..

فبتسم إيليا، وأسرع إلى الدرجات الأمامية للكنيسة الصغيرة فجلس عليها وأخذ ينصت إلى عبارات الحوار التي كانت تأتي إليه متناثرة:

– من سوء حظي أن تقع الجريمة أثناء نوبتي..

– وما ذنبك أن الثلوج المتساقطة كانت تحجب الرؤيا على مسافة متر واحد.

– إنه أغنى رجل في المدينة

– عليه اللعنة.. لقد كان يسلخ الذين يقعون بين يديه.

– ها هي زوجته قد حضرت..

ووقف إيليا ليلقي نظرة على زوجة بولكتوف. فرآها تهبط من زحافة صغيرة معتمدة على ذراع أحد رجال الشرطة. وكانت ترتدي ملابس سوداء، وتضع نقاباً خفيفاً على وجهها، ورداء من فراء الدببة على كتفيها. وفكر إيليا – وهو ينظر إليها – في أولمبيادا.. ثم سمعها تقول بصوت خافت مليء بالخوف:

– يا إلهي الرحيم..

وقال أحد الواقفين:

– هل حضر أبنه؟

– لا.. إنه في موسكو..

– لاشك أن هذه النهاية جديرة به..

– هذا هو رأيي أيضاً..

وإزدادت بهجة إيليا وهو يرى الجميع مسرورين بمقتل ذلك المرابي العجوز، وكأنما كان بينه وبين كل مقيم بالمدينة ثأر قديم. ولما نقلت جثة المرابي العجوز إلى المشرحة، عاد إيليا إلى غرفته بمنزل بتروشكا حيث أخرج من جيوبه ومن تحت صديريته رزم الأوراق المالية. ولما أحصاها وجدها أكثر قليلاً عن ثلاثة آلاف روبل، وبعد أن لفها في ورقة عادية، قرر أن يخفيها في غرفة الكرار بأعلى المنزل وحمل اللفافة في يده ببساطة وصعد بها

إلى الطابق الثاني. وقبل أن يهم بالصعود إلى الطابق الأعلى، ألتقى به.. ياكوف على السلم، فقال له مدهوشاً:

– لقد عدت مبكراً على غير العادة يا إيليا. ما هذا الذي معك؟

فنظر إيليا إلى اللفافة المحتوية على رزم الأوراق المالية، ثم قال بصوت متهدج بالخوف:

– هذه؟ لفافة أشرطة..

– هل ستأتي وتشرب معنا قدحاً من الشاي؟

– بعد لحظات..

وسار مسرعاً، ثم صعد إلى الكرار في حذر، وكان كراراً مهجوراً اتخذه صاحب البيت مخزناً للمهملات. وفي ركن محفور من هذا الكرار، أخفي إيليا لفافة الأوراق المالية، ثم هبط بهدوء وقد زايله الخوف، وكأنه دفن ذلك الخوف مع المال.

وكان يقول لنفسه مردداً:

– لماذا قتلته؟.. لماذا قتلته؟

ولما دخل غرفة ماشا، وجدها مشغولة بإعداد الشاي. وما كادت أن تراه حتى هتفت قائلة في إبتهاج:

– آه.. لقد جئت الليلة مبكراً.

– بسبب الثلوج المتساقطة..

ثم أردف قائلاً في إضطراب وضيق وتوتر عصبي:

– ثم ما معنى أني جئت مبكراً؟ إنني آتي عادة في مثل هذا الوقت ألا ترين أن الجو مظلم جداً؟

– إن الجو دائماً مظلم.. ولماذا تصرخ هكذا..؟

– لأنكم جميعاً تتجسسون علي.. أين أنت ذاهب؟ لماذا جئت مبكراً؟ ما هذا الذي في يدك؟ مالكم وشأني؟

ونظرت ماشا إليه في دهشة ثم قالت:

– لقد أصبحت حساساً أكثر مما ينبغي يا إيليا؟

فقال وهو يجلس إلى المائدة:

– اللعنة عليكم جميعاً..

– وعليك أيضاً.

وراح يرقبها وهي مشغولة بإعداد الشاي..كانت دقيقة الجسم، نحيلة، شاحبة البشرة، يحسبها الرائي صبية في الثامنة عشرة رغم عدم تجاوزها الخامسة عشرة.. كانت في نظره أقرب ما تكون إلى زهرة صغيرة برية تنبت بين وغل من البوص. وراح يرمقها وهو يفكر.. ها هي ذي تعيش بمفردها في هذا الجحر الأرضي، وتعمل عمل الكبار بلا مباهج أو

متع أو أي لون من ألوان الترف. بل وبلا أي أمل أن كانت تعرف ما هو الأمل. أما هو، فسوف يحقق أمله الذي طالما داعبه.. سيعيش نظيفاً مستقراً، سيرفع رأسه بين الناس.. ولكن المقارنة بين حياته المقبلة، وحياة ماشا جعلته يشعر بالحزن. فقال لها برفق:

– ماشا..

– ماذا تريد أيها المشاغب؟

– هل تعرفين أنني كنت يوماً ما شريراً؟

– إنك تستحق أن يضربك أحد ضرباً مبرحاً كما فعل بتروشكا مع ابنه ياكوف.

ثم أردفت قائلة بسرعة:

– أسمع يا إيليا.. أطلب من عمك أن بصحبني معه في رحلته إلى كييف. لسوف أشكرك على هذا طول حياتي..

فهتف إيليا قائلاً:

– ماذا؟ هل سيأخذك معه إلى كييف؟

فرفعت كفيها كأنها تبتهل وغمغمت بصوت حالم:

– ما أروع أن نبدأ الرحلة معاً في الربيع. إن هذا ما أحلم به.. أحلم بنفسي سائرة في الطريق.. أسير وأسير إلى ما لا نهاية.. وكلما تعبت

جلست في ظل شجرة وارفة أتناول شيئاً من ثمارها، وأروي الظمأ من جردل قريب. أرجوك يا إيليا.. أتوسل إليك.. دعني أقبل يدك.

– أيتها الحمقاء الصغيرة.. لا تقبلي يدي.. إنني قاتل.. أعني كيف يكون الحال لو إنني ارتكبت خطيئة لا تغتفر؟ هل يليق أن تقبلي يدي في مثل هذه الحالة؟

– لماذا لا..؟ هل أنت أسوأ من بتروشكا؟ إنني أقبل يده كلما أعطاني شيئاً يؤكل. إنني أقبل يده بإشمئزاز، ولكنه يرغمني على هذا.. بل ويطلب مني أن أقبله في وجهه.. وهو يقرصني أحياناً.. ويتحسس جسمي.. ذلك الحيوان!

– حسناً.. لسوف أطلب من عمي أن يصحبك.. إطمئني.

– أحقاً.. أحقاً.. يا لسعادتي!

– كل ما أرجوه منك أن تصلي من أجلي.

– سأفعل يا إيليا.. سأفعل.. طول عمري..

وفي تلك اللحظة دخل ياكوف قائلاً:

– ما هذا الصياح؟ لقد سمعتكما من الفناء..

وتراقصت ماشا من فرط السعادة قائلة:

– سوف أرحل مع العم ترنتي في الربيع..

فقال ياكوف فزعاً:

– ترحلين.. وأنا؟ ماذا أفعل؟

فقال إيليا ضاحكاً:

– أبحث لك عن مربية ترعاك..

– بل سوف أغرق نفسي في الخمر، إلا إذا أمكنني الرحيل مع العم ترنتي أيضاً.

– وماذا يمنعك؟

– أبي.. أإنه لن يتردد في إرسال رجال الشرطة ورائي لإعادتي بالقوة.. نعم.. ليس لي ملاذ من متاعبي إلا في الخمر.. آه.. ما أجمل أن يخرج الإنسان من هذا الجحر إلى الطبيعة.. يعيش في أحضانها، تحت شجرة وارفة، وعلى ضفة جدول.. ويفكر.. ويفكر.!

فقال إيليا بعنف:

– هذا هروب من الحياة، وأنا لا أطيق الذين يهربون من الحياة.

وألتفت ياكوف إليه وقال مغيراً مجرى الحديث:

– لقد عثرت على كتاب عجيب بلا غلاف ولكن المعاني التي ينطوي عليها رائعة.. أسمع..

فأسرع إيليا يقول:

– لا.. حذار.. إنني لست على إستعداد للجدال معك الليلة.. إما أن تتحدث في موضوعات عامة تفهمها ماشا أو أنصرف..

وانصرف إيليا بعد أن فرغ من الشاي إلى غرفته. وما كاد أن يستلقي على فراشه حتى أقبل عليه عمه الأحدب ترنتي متسللاً، وقال في همس:

– جئت لأتحدث معك قليلاً.. فإن وقت رحيلي قد أزف، وربما لا أجد فرصة أخرى للحديث معك..

– هل نويت على الرحيل فعلاً؟

– نعم. بمجرد أن يتحسن الطقس. أريد أن أكون في كييف في الأسبوع المقدس.

– حسناً. لماذا لا تأخذ ماشا معك؟

فرفع الأحدب يديه في فزع وقال:

– ماشا..

فقال إيليا في حزم:

– ليس هنا ما يحتم عليها البقاء. ثم إنها في السن التي.. أنت تعرف.. إنها معرضة للخطر.. من ياكوف.. ومن بتروشكا هل تفهم ما أعني؟ أن هذا البيت اللعين مصيدة. يجب أن تبتعد عنه.. ولعلها لا تعود إليه..

فولول الأحدب قائلاً:

– ولكن ماذا عساي أفعل بها؟

– خذها معك.. وأنفق عليها المائة روبل التي تريد أن تعطيها لي. إنني لست بحاجة إليها. لسوف تصلي من أجلك.. ومن أجلي.. وصلاتها لا تقدر بمال.

– نعم.. نعم.. هذا صحيح.. لسوف أفكر في الأمر، أتعرف أني ألتقيت أمس برجل حكيم يدعي بيوترشيوف.. هل سمعت عنه؟ إنه رجل ورع تقي تنثال الحكمة من فمه. لقد أرسله الله إلي ليخفف من عذاب ضميري.. إني واثق بأن الله سيغفر لي ذنوبي.

وصمت إيليا.. كان يريد أن ينصرف عمه ويتركه لنفسه.. ولأفكاره. ولكن الأحدب أستطرد يقول بلهفة:

– لقد تحدثنا عن الخطيئة والغفران. أتعرف ماذا قال؟ قال إن المحن والخطايا تطهر الروح البشرية وتدفعها إلى إلتماس المغفرة من الله.

فقال إيليا وهو يرمق عمه:

– هل يشبه الشيطان؟ ذلك الرجل الحكيم؟

فصاح مستنكراً:

– كيف تقول هذا؟ إنه رجل تقي ورع. إنه ناسك مشهور مثل جدك. آه، إيليا.. إيليا..

وأحنى الأحدب رأسه وزم شفتيه. وقال إيليا ضاحكاً في إستهتار:

- حسناً.. وماذا قال أيضاً؟

- قال إن الخطايا هي الأجنحة التي تطير بها الروح إلى عالم الندم والتوبة حتى تصبح جديرة برحمة الله..

فقال إيليا وهو يضحك مستهتراً مرة أخرى:

- أتعرف يا عمي إنك تشبه الشيطان؟

فرفع الأحدب يديه يائساً. وفجأة وثب إيليا من فراشه ودفع به نحو الباب قائلاً:

- أخرج الآن.. إنني أريد أن أنفرد بنفسي.. إنني في غير حاجة إلى التوبة. إن كل شيء في نظري بأمر الله.. فلماذا أنزعج؟ إن الله يعلم كل شيء وهو الآمر بكل شيء. والخطيئة قدر على البشر.. كل الناس خاطئون وقليل منهم التائبون.

فقال الأحدب:

- إنني لا أكاد أفهم شيئاً مما تقول!

- حسناً.. ما دمت لا تفهم، فاذهب ودعني وشأني.. إنني متوعك..

- هذا ما أراه..

- إذن انصرف، لأني أريد أن أنام..

ولما انصرف الأحدب ترنتي، أغمض إيليا عينيه وحاول أن ينام، ولكن أحداث اليوم ظلت تدور وتختلط بالأحاديث التي سمعها حتى خيل إليه أنه يهوي إلى أعماق سحيقة مظلمة..

وأخيراً غلبه النوم على أمره.

الفصل السادس

قرأ إيليا في صحف اليوم التالي أن رجال الشرطة يتخذون الإجراءات السريعة للقبض على قاتل التاجر بولكتوف. وابتسم لنفسه واثقاً أنهم سيعجزون عن القبض عليه إلا إذا أتاح لهم الفرصة بنفسه. وفي المساء أستلم رسالة قصيرة من أولمبيادا تطلب فيها أن يلتقي بها في مشرب بآخر شارع كوزتيكا في تمام التاسعة مساء. ولما ذهب في الموعد، وجدها في انتظاره وقد حجبت وجهها بنقاب، وارتدت ملابس عادية وكأنها متنكرة. وجلس معها على انفراد في ركن المشرب. وقالت هي:

– لقد جئت على هذا النحو لأن رجال الشرطة يراقبونني.. إطمئن.. إنهم فقدوا أثري بعد نصف ساعة من خروجي من المسكن.

فقال إيليا منفعلاً:

– وما شأني أنا بهذا كله.. لماذا طلبت مقابلتي؟

فرمقته أولمبيادا ملياً، ثم هزت رأسها وقالت هامسة:

– لقد استدعوني للتحقيق أمام وكيل النيابة.. وأعتقد أنهم سيستدعونك أنت أيضاً.

– أنا.. لماذا؟

لأنهم عرفوا العلاقة التي بينك وبيني. فإذا سألوك، فقل لهم الحقيقة كاملة.. لا تخفي شيئاً من علاقتك بي.. قل لهم متى رأيتني أول مرة، وكيف توطدت العلاقة بيننا.. قل الحقيقة كاملة..

– وماذا بعد؟

– واذا سألوك عن الرجل العجوز بولكتوف فقل إنك لم تره في حياتك.. أبداً.. ولا تعرف شيئاً عنه.. ولا عن علاقتي أتسمع؟

وشعر إيليا بإبتهاج خفي حين أدرك أنها تخشاه في قرارة نفسها. وأراد أن يسخر منها فقال ضاحكاً:

– ولماذا أكذب لماذا لا أقول الحقيقة؟ لماذا لا أقول أنني تخلصت من الرجل الذي يقف بيني وبين حبيبتي؟

فهتفت قائلة وهي تتراجع برأسها عنه:

– هذا كذب.. كذب.. إنه لم يقف بيني وبينك.. كان يكفي أن تشير بإصبعك إلي وأنا أهجر كل شيء وأتبعك إلى آخر الدنيا. ولكنك لم تفعل شيئاً.. إنك لا تحبنى حقاً. ولو كنت تحبني حقاً لما سمحت لي بالحياة معه.

فقال في حدة وهو يشعر أنها تحطم أسلحته بعتابها الصادق:

– كفى.. أمسكي لسانك..

ولكنها أستطردت تقول:

– إنني لم أرغب في إخفاء أي شيء عنك. إنك شاب وقوي وأنا أحبك. ماذا فعلت بي؟ لو أنك فقط طلبت مني أن أختار بينك وبينه، لما ترددت في الاختيار.. ولكنك لم تفعل.. إنك تريد أن تلهو بي فقط.. مثل الجميع.

فرفع إيليا قبضة يده وهتف بين أسنانه:

– كيف تجرؤين..؟

فرفعت عيناها وقالت بحدة وعنف:

– أضربني.. أضربني.. أو أقتلني كما قتلته.. هل تريد أن أصيح وأعلن للجميع أنك قاتله؟!

وجفل إيليا وشعر بالفزع برهة، ولكنه لم يلبث أن أرسل ضحكة جافة قصيرة. ولاحظ أن أولمبيادا تعض على شفتيها وتتلفت حولها كأنما تبحث عن مكان تهرب إليه أو تختفي فيه. وأخيراً أطرقت برأسها وتمتمت قائلة:

– أضحك.. أضحك.. عليك اللعنة..

– شكراً..

– عندما رأيتك أول مرة قلت لنفسي أنك الرجل الذي عشت حياتي أتمنى أن أحبه.. إنك الرجل الذي سوف ينقذني من هذه الهاوية التي ترديت فيها.

وقال إيليا بصوت رقيق:

– أولمبيادا..

وظلت جالسة في صمت وسكون. وعاد يقول بإحساس الرجل الذي يلقي بنفسه في هاوية:

– أولمبيادا.. لقد قتلت ذلك العجوز.. وهذه هي الحقيقة التي أعلنها أمام الله.

وأرتعدت شفتاها وتمتمت قائلة:

– أيها الأحمق..

ثم تناولت يده وراحت تقبلها بحرارة وهي تقول:

– لماذا تريد أن تفسد علي سعادتي لقد شعرت بالسعادة حين علمت بمقتله؟

– أنا الذي قتلته..

– سكوناً! لا تقل هذا. إنني سعيدة لأنهم قتلوه.. ولشد ما أتمنى لو أنهم قتلوهم جميعاً.. جميع الذين لمسوني.. فيما عدا أنت.. إنك الرجل الوحيد الذي لم يعاملني بوحشية..

فاقترب منها، وأخذ وجهها بين يديه، وراح يقبلها بنهم وهو يشعر أنه لم يحبها من قبل كما أحبها في تلك اللحظة.

وعادت وهي تقول:

– عندما كنت تغضب مني يا فتاي الحبيب النظيف، أشعر بضآلتى وقذارة حياتي، فأزداد حباً لك.

وأجاب عليها بمزيد من القبل.. واستطردت هي قائلة:

– إنك تحب جمالي.. هذه هي الحقيقة.. أما في أعماق نفسك فإنك لا تحبني كما ينبغي أن يكون الحب، لأنك لست راضياً عن حياتي هذه، ولست مستعداً لأن تغفرها لي. أما ذلك العجوز..

فنهض واقفاً وقال:

– لا تتحدثي عنه. وليكن بعد ذلك ما يكون. إنني أعترف بأني لن أنجو من عقاب الله إذا شاء أن يعاقبني. وشكراً على حديثك عني يا أولمبيادا. إنك على حق. وأنا لم أنصفك.. كنت أظن.. أظن .. حسناً.. إنني المسئول عن كل ما حدث..

وراح يتحسس شعرها الناعم بحنان، وأردف قائلاً:

– ولكن لماذا.. لماذا؟

وأمسكت بيده، وجذبته للجلوس بجوارها، فقال دون أن يفهم شيئاً من همساتها:

– إنني قاتله.. أنا الذي قتلته..

– صه.. لا تقل هذا..

لقد حدث كل شيء بالمصادفة. والله وحده يعلم كيف حدث هذا. لم أكن أقصد أن أقتله. أردت فقط أن ألقي نظرة عليه في وضح النهار. هذا ما دفعني إلى دخول حانوته. له لم تكن فكرة قتله تخطر ببالي في تلك اللحظة. ولكن الشيطان دفعني إلى إرتكاب هذه الجريمة، ولم يعصمني الله منها. ولكنني آسف على أخذي الأموال من حانوته.. ما كان ينبغي أن أفعل هذا.

فضمته أولمبيادا إلى صدرها بقوة وتمتمت قائلة:

– لقد أحسنت إذ أخذت المال. لسوف تبدو الجريمة في نظر المحقق جريمة سرقة، أي أن الحافز عليها هو السرقة، لا الغيرة.

وقال إيليا كأنما يرد على سؤال:

– إنني لن أعترف. ليعاقبني الله إذا شاء، ولكنني لن أدع هؤلاء الناس يقتصون مني. إنهم غير جديرين بمحاكمتي..كيف أسمح لرجل مثل بتروشكا الخمار أن يحاكمني بصفته عضواً في هيئة المحلفين ومجلس المدينة؟ لا.. إنني لم أر حتى الآن شخصاً بلا خطايا.. فكيف يحكم الخاطئون على الخاطئين؟!

وتمتمت أولمبيادا قائلة:

– لست أدري ما سوف يحدث إنني عاجزة عن التفكير.. هلم نتصرف الآن..

ثم أردفت قائلة:

– ماذا تنوي أن تفعل يا إيليا؟ لا شك أن كل شيء لم يضع تماماً..

– أطمئني.. لسوف أعرف كيف أواجه المحقق.. إنه لن يكون أكثر ذكاء مني.. إنني لن أتركهم يقتلونني أو يرسلون بي إلى سيبريا من أجل المرابي اللعين. إن الحياة لا تزال ممتدة أمامي، وما أكثر ما أريد أن أحققه فيها.

والتمعت عيناه بالحماس. وقالت هي:

– هل المال الذي أخذته ثلاثة آلاف روبل فقط؟

– أكثر قليلاً..

– يا لك من سيء الحظ.. لماذا لم تأخذ كل ما كان لديه من جواهر؟

– إنني لم أقتله من أجل المال.. ألا تفهمين.. حسناً.. سأنصرف أنا أولاً..

وقالت بعد أن قبلته بحرارة:

– تعال لزيارتي في أقرب فرصة. لا داعي لأن نخفي علاقتنا.

ومرت الأيام تباعاً وإيليا ينتظر استدعاء المحقق له. وأخيراً – في اليوم السادس – دخل غرفة المحقق، وكان شاباً يضع على عينيه نظارة ذهبية الإطار. وانحني إيليا أمامه باحترام، وقال له المحقق وهو يتناول نظارته بأصابع بيضاء جميلة ويمسح زجاجها:

– كيف حالك؟ أجلس..

وجلس إيليا أمام الشاب. وخيم الصمت مدة طويلة. وأخيراً قال المحقق وهو ينقر بأصابعه على المكتب:

– إنك إيليا لييف إذا لم أكن مخطئاً؟

– نعم..

– هل تعرف لماذا استدعيتك؟

– لا..

– أحقاً؟ ألم تخبرك أولمبيادا؟

– لا.. لم أرها منذ مدة طويلة..

فتراجع المحقق الشاب في مقعده وقال بهدوء:

– منذ متى؟!

– لا أذكر.. منذ ثمانية أو عشرة أيام..

– آه.. هل أعتدت أن ترى بولكتوف في مسكنه؟

فقال إيليا وهو ينظر ببراءة في عيني المحقق:

– أتقصد الرجل الذي قتل؟!

– نعم.. الرجل العجوز الذي قتل!

– لا.. لم أره في مسكنها أبداً..

– أبداً..

– نعم.. أبداً..

وساد الصمت مرة أخرى، وفجأة قال المحقق وهو يرمق إيليا بإمعان:

– هل تعرف أن أولمبيادا كانت عشيقة للرجل العجوز؟

– كانت عشيقته.. وتلك هي الحقيقة المؤلمة..

وهز إيليا كتفيه كأنما الأمر لا يعنيه. وعاد المحقق يقول:

– منذ متى وأنت تعرف أولمبيادا؟

– منذ أكثر من عام.

– هذا يعني أنك تعرفها قبل أن تلتقي ببولكتوف؟

وأدرك إيليا المصيدة التي يريد المحقق أن يوقعه فيها، ومن ثم قال بهدوء:

– ومن أين لي أن اعرف هذا؟

ومرة ثالثة خيم الصمت الثقيل على الغرفة. وقطعه المحقق بقوله:

– هل تستطيع على نحو ما أن تتذكر أين كنت يوم الثلاثاء الأسبق فيما بين الساعة الثانية والساعة الثالثة بعد الظهر؟

– كنت أشرب الشاي في مشرب..

– آه.. في أي مشرب..

– مشرب بينا..

– كيف تفسر قدرتك على تذكر هذا كله بمثل هذا التحديد؟

فقال إيليا بهدوء:

– قبل أن أدخل المشرب، سألت رجل الشرطة عن الساعة..

وأخذ المحقق ينقر بطرف القلم على المكتب ثم قال:

– وهل يعرفك رجل الشرطة هذا؟

– نعم..

– ألا تملك ساعة؟

– لا..

هل سبق أن سألت رجل الشرطة هذا عن الوقت؟

– أحياناً..

– هل أمضيت في المشرب وقتاً طويلاً؟

– بقيت فيه حتى سمعت بعضهم يهتف بنبأ الجريمة..

– إلى أين ذهبت بعد ذلك؟

– خرجت لأتفرج على الجثة..

– هل رآك أحد هناك.. عند الحانوت؟

– رآني رجل الشرطة.. بل لقد دفعني بعيداً.

– عظيم جداً..

ثم أردف قائلاً بصوت عادي كأنما يلقي سؤاله عرضاً:

– متي سألت رجل الشرطة عن الوقت؟ قبل وقوع الجريمة أو بعدها؟

وفطن إيليا مرة أخرى إلى الفخ المنصوب له ومن ثم قال ببساطة:

– من أين لي أن أعرف؟

فأوما المحقق برأسه، ثم قال:

– عندما سرت في ذلك الشارع يومذاك، هل لاحظت وجود رجل طويل يرتدي سترة من جلود الأغنام؟

– لا..

وهنا دفع المحقق بأوراق التحقيق إلى إيليا وقال له:

– أقرأ أقوالك في هذه الأوراق ثم وقع عليها..

ولما فعل إيليا هذا، قال له المحقق:

– يمكنك أن تنصرف الآن..

ولما خرج إيليا إلى الطريق، وجد نفسه غارقاً في بحر من العرق.

الفصل السابع

أسرع إيليا إلى مسكن أولمبيادا، فلما رأته أشرق وجهها الشاحب بالسعادة، وكأنها أم تستقبل إبناً مفقوداً.. وبعد أن صعد معها إلى غرفتها، أخبرها بما دار بينه وبين المحقق، قالت له:

– لقد أحسنت التصرف!

– إنه ثعلب مراوغ.. حاول كثيراً أن ينصب لي فخاً فلم يستطع..

– إن رجال المباحث يتعقبونني، وأعتقد أنهم يتعقبونك أيضاً.. فلنكن دائماً على حذر.

– دعيهم يفعلون.. إنهم يريدون أن يدفعوا بنا وكأننا ذئاب في الغابة. ولكنهم لن ينجحوا، لأننا لسنا ذئاباً.. إننا مخلوقات آدمية تعسة.. إنني لم أكن أقصد خنق بولكتوف. ولكن الحياة تخنقني.. كما قال بافيل في قصيدته..

نهض إيليا عن المتكأ، واتجه نحو النافذة، وأردف قائلاً بصوت مفعم بالأسى:

– لقد عشت حياتي كلها ووجهي في الوحل.. إن الحياة تدفعني نحو كل شيء أكرهه، ولم أر في حياتي إنساناً يمكن أن أقتدي به.. ألا يوجد في هذه الدنيا شيء نظيف محترم؟ أنظري إلي.. لماذا لوثت يدي بخنق ذلك

الرجل؟ لقد صبغت روحي برقعة سوداء لا يمكن أن تزول إلا بأشد العقاب.. والعذاب، فلماذا فعلت كل هذا؟

– لا داعي لأن نيأس إلى هذا الحد. إنه لم يكن جديراً بالحياة..

– إنني لست يائساً.. وإنما أحاول أن أبرر ما فعلت. كل إنسان في هذه الدنيا يحاول تبرير سلوكه يريد أن يستمر في الحياة.. فيما عدا ذلك المحقق.. إنه يعيش آمنا من كل شيء.. يعيش نظيفاً مستقراً في غير حاجة لأن يخنق أحداً بيديه.

– لسوف نرحل معاً عن هذه المدينة في الوقت المناسب..

– لا.. لن أرحل إلى أي مكان آخر.. سوف أبقى هنا وأرى ما سوف يحدث..

– إنك لا تريد أن ترحل معي خوفاً مني.. خوفاً من أن أسيطر عليك بما أعرفه عنك. إنك مخطئ يا فتاي الحبيب. إنني لن أقبل أبداً أن أجرك ورائي رغماً عنك..

– ما هذا الذي تقولين؟

– لا تخف.. إنني لن أرغمك على البقاء معي.. أذهب حيث شئت.

– ما معنى هذا؟ لماذا تقولين لي هذا؟

فسحبت يدها بعنف وقالت:

– لأنني أعرفك، أعرف حقيقتك. إنك إنسان متكبر قاسي القلب لا يمكن أن تغفر لي حياتي مع ذلك العجوز، كما أنك لا تزال مشمئزاً من طريقتي في الحياة. ولست أشك في أنك تعتقد أن كل ما حدث كان بسببي، ولهذا فأنت تكرهني.

فقال إيليا بلهجة صادقة:

– هذا افتراء وكذب إنك غير مسئولة عن شيء. فأنا أعرف أن النساء المحصنات لسن لأمثالي.. إنهن مقصورات على الأغنياء القادرين.. أما نحن فلا أمل لنا إلا في نفايا النساء.. في اللاتي يعشن في الوحل..

فوثبت أولمبيادا وقالت بإنفعال شديد:

– إذن دعني ما دمت تظن أنني كذلك أخرج من هنا.. أخرج..

وطفرت الدموع إلى عينيها الحمراوين من فرط الاهتياج وأردفت قائلة:

– إنني أعيش في الوحل بمحض إختياري،لأن فيه المال الذي يحقق رغباتي الذي سيجعلني أستطيع الصعود مرة أخرى إلى حياة نظيفة. نعم.. إنني أنوي أن أعيش حياة نظيفة محترمة. وقد ساعدتني على ذلك.. إنني أعترف بهذا. وإني أحبك لهذا السبب. ولا يهمني إن كنت قاتلاً لعشرة رجال من طراز ذلك العجوز اللعين. وأنا لا أحبك فقط للمساعدة التي قدمتها إلي، وإنما لأنك معتز بكرامتك وكبريائك – لأنك شاب.. قوي..

وسيم.. أحبك لأنك توبخني وتحمل علي وتكره طريقتي في الحياة.. إنني لن أنسى لك هذا الجميل ما حييت.. بل إنني على إستعداد لأن أركع وأقبل قدميك.

وقبل أن يتحرك إيليا من مكانه، ركعت أمامه وقبلت ركبتيه وقالت:

– أشهد الله أنني اخترت طريقي هذا لأنقذ روحي. إن الله يفضل أن أتمرغ في الوحل لكي أضمن بعد ذلك حياة نظيفة على أن أبقى طيلة حياتي متمرغة في هذه الأوحال. وعندما أصعد إلى الحياة النقية، فسوف أصلي وأبتهل من أجل الغفران. إنني الآن غارقة في الإثم، وما أظن أن دموعي طول حياتي يمكن أن تطهرني.

وظلت تشهق بالبكاء وهي متشبثة بركبتي إيليا. وكان هو يمسح بيده على شعرها ليهدئ نفسها. ولكنها استطردت تقول:

– إذا أخطأ الإنسان مرة، فهل يفيد أحداً أن يعيش المخطئ ذليلاً طول حياته بسبب هذا الخطأ؟ عندما كنت صبية في الرابعة عشرة من عمري، تسلل زوج أمي إلى مخدعي ليغتصبني.. وقاومته بعنف.. ولكنه انتصر علي في مرة أخرى.. سقاني خمراً.. ونالني.. وكنت نقية ناضرة كالزهرة. وبكيت كثيراً على مصيري.. ولكنني عجزت عن المقاومة.. وأخيراً قررت أن أجعلهم جميعاً يدفعون الثمن الغالي.. وأخذت أسرق أموالهم وأشرب الخمر وأتقزز من قبلاتهم.. لم يحدث يوماً أني أحببت أو احترمت واحداً منهم.. حتى التقيت بك.

ثم حاولت أن تنهض وتنتزع نفسها من ذراعي إيليا قائلة:

– دعني أنصرف.. دعني أبتعد عنك..

ولكن إيليا ظل يعانقها ويقبلها بحرارة، ويهمس قائلاً:

– لا شيء يمكن أن أقوله لك.. إلا هذا. ليس هناك من يهتم بنا. وعلينا ألا نهتم بغيرنا. وإني سعيد بسماع ما قلته لي. إنك في أعماق نفسك إنسانة طيبة، وأنا أحبك.. أحبك أكثر من.. أكثر من.. إنني عاجز عن التعبير..

وتعانق الإثنان بحرارة، وأخذا يغمغمان همساً بآلامهما.. وقالت أولمبياذا بصوت كله اليأس:

– إننا لن نعرف معنى السعادة أبداً..

– إذن فلنتحمل معاً الشقاء.. إذا قرروا إرسالنا إلى المنفى، فلنذهب معاً. أليس كذلك؟ ولكن إلى أن يحين هذا الوقت فلنغرق آلامنا في الحب. إنني لا أبالي الآن أن يلقوا بي إلى النار مادمت سعيداً بهذا الحب الذي يربطني بك..

والتهبت شفاههما من فرط القبل.. والتصق جسداهما في عناق حار..

وعاش الإثنان في شهر عسل جديد.. ولكن كان هناك شيء بينهما كأنه الماء البارد الذي يفسد حرارة حبهما، ومن ثم كان إيليا يستغرق في

التفكير عندما يتبادلان الحديث حيناً بعد حين. وكانت أولمبيادا تقول له عندئذ:

– أرفع رأسك يا فتاي الحبيب.. تأكد أنه لا يوجد في هذا العالم إنسان واحد نظيف اليدين.

وكان إيليا يرفع رأسه فجأة ويقول بحدة:

– اسمعي.. إنني لا أريد أن نتحدث عن هذا الأمر مرة أخرى.. إنني لا أفكر في الأيدي النظيفة والأخرى الملوثة.. وأياً كانت براعتك، فإنك لا تعرفين مدار أفكاري.. إنني أفكر دائماً في هذا. كيف يمكن للإنسان أن يعيش نظيفاً.. كيف يعيش دون أن يسيء إلى أحد، أما عن ذلك الرجل العجوز فلا أريد أن أسمع كلمة أخرى.. أتفهمين؟!

ولكنها لم تكن قادرة على منع تقدمها من بذل كل جهد ممكن لكي ينسى إيليا تلك الجريمة. فإذا طلبت منه أن ينساها، غضب وأسرع بالانصراف. وعند عودته في اليوم التالي تستقبله باكية بعنف، قائلة أنه يعود إليها وإلى ذراعيها لأنه خائف منها.. خائف من أن تكشف سره للشرطة، وأنها لا تريد هذا اللون من الحب القائم على الخوف. ثم تزداد إهتياجاً فتنهال عليه بالألفاظ القاسية وتضربه وتعضه وتخمشه وتقبل يديه وقدميه وتمزق ملابسها وتقف عارية أمامه تقول:

– ألا تراني متعة للنظر؟ أليس لي أجمل جسم، إنني أحبك بكل ذرة في هذا الجسم، بكل قطرة من دمي، بكل درهم من لحمي.. مزقني إذا شئت ولكن لا تحتقرني أو تشترى سلامتك بإصطناع الحب لي..

وتختلج شفتاها باللهفة إلى الحب، وتلتمع عيناها وتضيقان، ويضطرب صدرها وهي تلهث وكأنما يشرئب نهداها للوثوب إليه، وهنا يأخذها بين ذراعيه حتى يناله الإعياء. وعند عودته إلى البيت، يفكر لنفسه: كيف يمكن أن تحتمل فتاة ملتهبة نابضة بالحياة كهذه، لمسات يدين ملوثتين كيدي؟ ويشعر بالإشمئزاز منها، ويبصق على الأرض..

وفي ذات يوم، بعد ثورة عاطفية كهذه تركته جالساً يمسح بيده على شعرها، قال لها:

– لقد ازددت حباً لي منذ أن.. أرتكبت جريمتي!

– هذا صحيح.. وماذا في ذلك؟

– لا شيء ولكنه عجيب.. إن هناك أناساً يفضلون الطعام الفاسد على الطازج هذا هو كل شيء.. ولكنه أمر عجيب..

وابتسمت أولمبيادا في شرود، ولم تقل شيئاً.

* * *

وفي ليلة أخرى، كان إيليا جالساً مع ياكوف في غرفته يتبادلان الحديث كالمعتاد. وكان ياكوف يحاول أن يتحدث عن الكتب التي قرأها،

وعن السعادة في الحياة، والشقاء، وعن مصير الروح بعد الوفاة، وكان ايليا كعادته يحاول أن يعتقد بأن خلاصة الفلسفة هي أن يعرف الإنسان كيف يعيش في الحياة نظيفاً مستقراً متجنباً إيذاء الغير. وفيما هما على هذا النحو من الجدل، إذا بهما بسمعان وقع أقدام مترنحة على السلم في الطريق إليهما. وما هي غير لحظات حتى فتح الباب ودخل برفشكا – والد ماشا – مترنحاً يمسك الأكرديون بين يديه، ثم انفلتت وراءه ماتيتزا – أبنة الليل المتسولة – مخمورة مثله، تقول له:

– صفقة جميلة أيها المخمور..

– الفضل لك أيتها «الخاطبة».. السكيرة..

وفيما كانت ماتيتزا ترسل ضحكة بلهاء، قال إيليا ممتعضاً:

– أين كنتما؟!

وحملق ياكوف إلى الإثنين في بلاهة، بينما رد برفشكا قائلاً بصوت مترنح:

– أين كنا.. أين كنا.. ها ها.. أين كنا يا ماتيتزا؟

وقبل أن يرفع الإثنان عقيرتهما بالغناء المخمور، قال إيليا بحدة:

– وأين ماشا؟

ورد برفشكا وماتيتزا على هذا السؤال بالغناء العابثة، ولكن إيليا أمسك بكتف ماتيتزا وقال وهو يهزها بعنف:

– أين ماشا؟ أين ذهبت بها؟

وقالت وهي تحاول أن تتخلص من قبضته:

– لن أقول لك شيئاً.

وتمتم إيليا في حنق:

– يبدو أن هذين الشيطانين باعاها..

وفيما كان ياكوف يتلفت حوله في فزع، أردف إيليا قائلاً لبرفشكا:

– أين ابنتك أيها السكير؟! أين ماشا؟

وقالت ماتيتزا بصوت ممطوط:

– ماشا؟! لقد انتهت ماشا..

وهتف ياكوف فزعاً:

– هل سمعت يا إيليا؟ ماذا نفعل الآن؟

وفجأة استدار برفشكا نحوهما وقال بحدة:

– أخرجا من هنا.. إن هذه غرفتي.. وسوف أتزوج ماتيتزا الليلة..

وقال إيليا بإصرار:

– إننا لن نخرج حتى نعرف ماذا فعلتما بماشا؟

وقال برفشكا:

– حسناً.. أخبريهما يا ماتيتزا.. قولي لهما أننا أنقذنا ماشا من الوحل..

وقالت ماتيتزا:

– لقد زوجناها يا إيليا.. زوجناها للبدال العجوز كيرتوف... لتعيد إليه شبابه وتخدم أبنته من زوجته المتوفاة.. أتعرف ماذا أعطانا مقابل هذه الصفقة؟ عشرة روبلات كاملة.. سكرنا بها.. ولكنه هددنا بالقتل إذا نحن اقتربنا من متجره في يوم ما..

وتمتم إيليا بوجه مربد:

– أيها الحيوانان!

وانفجر ياكوف باكياً.

الفصل الثامن

إضطر إيليا للبحث عن مسكن جديد بعد أن اشتدت الخصومة بينه وبين بتروشكا ذلك أنه عاد ذات مساء فعلم أن الرجل إختلف مع إبنه ياكوف وظل يضربه بقسوة حتى سقط الفتى وهو بين الموت والحياة، ولم يلبث أن حمل إلى المستشفى ولم يتمالك إيليا نفسه حين سمع هذا كله، فاقتحم الحانة، وهجم على بتروشكا وظل يوجه إليه اللكمات والركلات حتى سقط على الأرض، ثم غادر المكان من فوره، باحثاً له عن مسكن جديد.

وخلال ساعتين وجد غرفة صغيرة مفروشة بجوار المطبخ في شقة صغيرة يقيم بها زوجان بلا أبناء وفرجته عليها فتاة في بلوزة حمراء صغيرة الجسم، قالت له بصوت مغرد وابتسامة عذبة:

– إن إيجارها معتدل.. خمسة روبلات في الشهر فقط.. وهي كما ترى جيدة، وجديدة الطلاء، وتطل على الحديقة. وفي الصباح سوف أعد لك الشاي لكن عليك أن تحمله بنفسك إلى غرفتك.

فقال إيليا:

– هل أنت الشغالة؟

ورفعت الفتاة رأسها في تعال وشموخ وقالت بجبين مقطب:

– إنني ربة البيت..

فهتف إيليا في دهشة وهو يرمق جسمها الصغير:

– أتعنين أنك زوجة؟

وهنا أرسلت ضحكة رنانة عذبة وقالت:

– ما أعجبك؟ حسبتني الشغالة أولاً، ثم أبينت أن تصدق أني زوجة!

وأضحك إيليا بدوره وقال:

– إنك تبدين كطفلة.

– إذن ما رأيك في أني متزوجة منذ ثلاثة أعوام وزوجي شرطي المركز..

ورمقها إيليا بنظرة سريعة، ثم أرسل ضحكة قصيرة دون أن يدري لماذا.. وقالت هي:

– إنك غريب الأطوار أيها الشاب. هل أعجبتك الغرفة؟

– نعم.. وسوف أحضر حاجياتي بعد ساعة..

– يسرني هذا.. إنك تبدو شاباً لطيفاً مرحاً..

وهكذا استقر في مسكنه الجديد، شريكاً في شقة لأحد رجال الشرطة.. وكثيراً ما كان يضحك لنفسه كلما تذكر هذه المفارقة.. وذهب في اليوم التالي إلى المستشفى لزيارة ياكوف. فوجده مستغرقا في النوم بعد أن قضى ليلة كاملة وهو يتوجع. وفيما كان إيليا متردداً بين الإنتظار أو

الإنصراف، إذا به يرى بافيل مقبلاً في دهليز المستشفى ومرتدياً ملابس المرضى فأسرع إليه هاتفاً:

– بافيل.. ماذا تفعل هنا؟

– أوه.. إيليا.. وأنت ماذا جاء بك؟

وأخبره إيليا بأمر ياكوف ثم قال وهو يفحص بنظراته وجه بافيل الشاحب:

– ماذا بك يا بافيل؟

وإضطرب بافيل برهة ثم قال هامساً في خجل:

– مرض سري..

– أرجو ألا تكون العدوى من فيرا إذا لم تكن منها، فممن تكون؟

وهز إيليا رأسه وقال:

– لاشك أنني سأصاب بهذا المرض أيضاً، يوماً ما.

– أرجو أن تنجو منه.. لقد تعذبت بسببه أسبوعين عذاباً لا يحتمل.. هذا فضلاً عن عذاب الشعور بالوحدة في المستشفى.

– وأين فيرا؟

– لا أدري..

– ألا تأتي لزيارتك؟

– جاءت مرة ثم طردتها.. لم أستطع أن أحتمل النظر إلى وجهها..

فنظر إيليا إلى وجه بافيل المربد، ثم قال بعطف:

– يجب أن تكون منصفاً يا بافيل.. ما ذنبها هي.. إنها ضحية مثلك..

– إنني أشعر بالحزن الآن من أجلها، إذ عندما طردتها بكت.. بكت في صمت واستسلام، وأردت أن أبكي معها.. ولكن قلبي كان مسحوقاً وكان عليه كومة من الأحجار.. آه.. إيليا.. ليس لأمثالنا مجال في هذه الحياة.

وقال إيليا وهو يبتسم في شحوب:

– لابد أن هناك خطأ ما في هذه الدنيا.. إننا لا نجد فيها القسوة والعنت والظلم..

ياكوف يعيش بائساً شقياً بسبب أبيه.. وماشا تباع للزواج برجل عجوز.. وماتيتزا تتسول بجسدها.. وها أنت ذا..

ثم أردف قائلاً وهو يضحك مرة أخرى:

– أنا فقط الذي يحالفه الحظ.. ما أكاد أطلب شيئاً حتى يتحقق..

– ألا زلت على علاقتك بأولمبيادا؟

– نعم..

– أرجو أن تبلغها تحياتي..

وفي تلك اللحظة أقبل معاون المستشفى وطلب من إيليا الإنصراف.

وعاش إيليا مستقراً في مسكنه الجديد، وأخذ يهتم بحياة الزوجين اللذين يشاركانه المسكن. كانت الزوجة تدعي تانيانا لازينا. وكانت شابة في الثانية والعشرين، مرحة، باسمة.. لا تكف عن الغناء والضحك.. وقد أخبرته بتاريخ حياتها بعد يومين من إقامته معهما.. وكان يسمعها وهي تعد الإفطار لزوجها في المطبخ أثناء شربه للشاي في الصباح.. وكثيراً ما يكون الباب بينهما مفتوحاً فيراها وهي تعمل، تروح وتجيء بنشاط وخفة.. وتنظر إليه بين الحين والآخر باسمة.. وقد قالت له ذات صباح:

– إننا قد لا نكون أغنياء.. زوجي وأنا.. ولكننا على قسط كبير من التعليم، لقد أتممت دراستي الثانوية.. وكذلك كيريك.. تم التحق بالشرطة إلا أننا نريد أن نصبح أغنياء.. وهذا ما سيحدث.. وسوف ترى ومن حسن حظنا أننا بلا أبناء.. إنهم يكلفون الآباء الكثير من المال والجهد. وأنا أقوم بالطهو وشراء الحاجيات من السوق، أما أعمال المنزل فإنني أستأجر فتاة للقيام بها نظير روبل ونصف روبل في الشهر. وبهذا أوفر أجر طاهية وطعامها وإقامتها.. تعلم مني كيف تقتصد لتصبح من الأغنياء ذات يوم؟

وعندما كان إيليا يعود في السماء، تفتح له الباب، فيراها نظيفة أنيقة ببساطة، عذبة الإبتسام، طيبة الشذى. فإذا كان زوجها بالبيت أخذ يعزف على القيثارة، بينما تصاحبه هي بالغناء بصوت عذب صاف كأنه تغريد

البلبل.. وفي أمسيات أخرى كانا يلعبان الورق، والرهان عدد معين من القبلات!.. وكان إيليا يسمع كل شيء.. العزف.. والغناء.. ولعب الورق.. وطرقعة القبلات. وكان الزوجان يعيشان في غرفتين: إحداهما للنوم، والأخرى للجلوس وكان زوج تانيانا كيرك أوتونوموف شاباً في السادسة والعشرين من عمره، طويلاً كبير الحجم، كبير الأنف، طيب الوجه، باهت العينين، قصير الشعر.. وقد أحب إيليا من أول لقاء، وكثيراً ما كان يدعوه لشرب الشاي في المساء.

وكان إيليا يزداد حباً وإعجاباً بالزوجين كلما طالت إقامته معهما. كان كل شيء حولهما نظيفاً محترماً ينم عن السلام والهدوء والاستقرار وكانت تانيانا تحكي لزوجها بعد عودته من العمل عما حدث لها في يومها، وكان هو يحكي لها ما حدث له في يومه، وكان إيليا يشعر،كلما طالت جلسته، وحيداً بالغرفة، بالإختناق.. فيخرج ويسير على غير هدى في الطرقات أو يذهب لزيارة أولمبيادا.

وأخذت غيرة أولمبيادا تزداد يوماً بعد يوم، ومن ثم كان النزاع بينهما يزداد، ولكنها لم تحاول يوماً أن تشير من بعيد أو قريب إلى مقتل العجوز بولكتوف. أما في حالات الصفاء والحب فكانت تحثه دائماً على نسيان ذلك الحادث. ومن ثم كان إيليا يقول لها:

– لماذا لا ترهبيني بتلك الجريمة عندما نتشاجر؟

– لأنها لا شأن لها بيني وبينك. فإذا لم يقبضوا عليك، فمعنى هذا أن الرجل لقي جزاءه العادل. إنك لم تقتله لسبب ما –هذا ما تقوله دائماً– ومعنى هذا أنك لم تكن إلا أداة للإقتصاص منه.

ويرسل إيليا ضحكة ساخرة تجعلها تقول:

– لماذا تضحك؟

– لا لشيء.. إنني أفكر فقط في أن كل إنسان له عقل يستطيع أن يبرر كل تصرف أو يجد في كل تصرف آخر مأخذاً.

– إنني لا أفهم ماذا تعني؟.

– المسألة بسيطة.. إنني أعيش على أمل أن أقيم لنفسي مكاناً في الحياة لا يستطيع أن ينال منه أحد.. ولكنني كلما تلفت حولي، وجدته غير قابل لأن يتحقق لي أو لغيري.

وبعد إحدى المشاجرات، إمتنع إيليا من زيارتها بضعة أيام. وفي ذات يوم، تلقى منها الرسالة التالية:

«وداعاً يا فتاي الحبيب.. وداعاً إلى الأبد. فلا تحاول أن تبحث عني، لأنك لن تعثر علي. لسوف أرحل عن هذه المدينة اللعينة على السفينة التي ستبحر اليوم. لقد تحطمت روحي إلى الأبد على صخرة الحياة في هذه المدينة. إنني هاربة منها، ولن أعود. فلا تفكر في، ولا تنتظر عودتي. إنني أشكرك من كل قلبي لما قدمت إلي من خير، وسوف نسي كل

شر صدر عنك. ومن حقك أن تعرف أنني لست راحلة بمفردي. إنني ذاهبة مع الشاب أنانين الذي يطاردني بحبه منذ مدة طويلة ويقسم أن حياته ستتحطم إذا لم أعش معه.. إذا لم أتزوجه وقد قبلت الزواج به لأنجو من هذا الهوان الذي أعيش فيه. وسوف نذهب إلى مدينة بحرية يمتلك فيها آل أناتين عدة مصايد للأسماك. إنه شاب بسيط طيب القلب.. وأحمق.. ودليل حماقته أنه يريد الزواج بي..

وداعاً يا فتاي الحبيب.. إنني أشعر أنني عرفتك في حلم جميل فلما صحوت منه لم أجدك. آه لو تعلم كم أتعذب من أجلك؟ إنني أقبلك وأقبلك.. ولن أنسى حبنا يوماً.. ولكنني أرجو ألا تزهو بنفسك كثيراً.. فما نحن إلا مخلوقات بشرية تعسة.. لقد أصبحت فتاتك أولمبيادا حزينة في النهاية.. إن قلبها قد انكسر.. ولم يعد لها في الحياة أمل أو هدف، وأخيراً أرجو أن تضع في إصبعك الخاتم الذى أرفقه بخطابي هذا حتى لا تنساني"..

ولما فرغ إيليا من قراءة الخطاب، مضى إلى النافذة وراح يطل منها وقد امتلأت عيناه بالدموع.

الفصل التاسع

قالت تاتيانا ذات صباح لإيليا بعد أن اعتادت أن تدخل غرفته:

– أراك مضطربا يا إيليا في هذه الأيام وعاجز عن إخفاء مشاعرك..

– وما هي مشاعري؟

– إنك حزين من أجل أولمبيادا.. لقد قرأت رسالتها..

خفق قلب إيليا بعنف، وفكر في رزم الأوراق المالية التي أخفاها في الغرفة.. وخشي أن يرفع عينيه إلى الفجوة التي اصطنعها في أعلى النافذة، وراء الإطار الخشبي، ثم وضع فوقها شريحة صغيرة من الخشب.. وكلما رأى تلك الشريحة في مكانها أدرك أن أحداً لم يمس النقود.. وإطمأن قلبه حين رأى العلامة في مكانها فوق النافذة..فقال وهو يتظاهر بالتفكير ويرفع عينيه إلى أعلى:

– إنك على حق..

ولما سمعا حفيفاً في الحديقة الصغيرة، أطلا من النافذة، ولكن تانيانا قالت:

– لا شيء.. إنها هبات الريح.. إسمع.. إنني قد أكون صغيرة السن، ولكنني لست حمقاء.. هل تحب أن تسمع نصيحة مني؟!

– نعم..

– مزق هذه الرسالة وإنسها، إذا كانت قد هجرتك، فقد أحسنت صنعاً. إنك أصغر من أن تفكر في الزواج.. لايزال الطريق أمامك طويلاً حتى تحتل مكانك المناسب في الحياة ثم تتزوج ويكون لك بيت خاص. إنك شاب قوي، وفي مقدورك أن تعمل كثيراً.. وأنت أيضاً وسيم، وكل فتاة تتمنى أن تكون زوجة لك. ولكن لا تقع في حبائلهن.. إعمل وكافح وإكسب وإدخر وإفتح لنفسك متجراً.. ثم تزوج. إن كل وسائل النجاح مهيأة لك.. إنك وادع، ولا تشرب الخمر، وليس هناك من تعوله..

وكان إيليا ينصت وهو مطرق الرأس. ولكنه كان يتمنى لو استطاع أن يضحك عالياً. واستطردت تانيانا قائلة بلهجة الشخص المجرب:

– لسوف ينتهي كل شيء. إن الحب لمرض.. لا يلبث أن يبرأ الإنسان منه. لقد أحببت ثلاث مرات قبل الزواج. وفي كل مرة كنت أريد ان أقتل نفسي بعد فشلي في الحب ولكني الآن أضحك ساخرة من أفكاري ولما قررت الزواج من الرجل المناسب، تزوجت كيرك.. ثم أحببته.. ولا عجب في هذا فكثيراً ما ينمو الحب بعد الزواج.

وظل إيليا بنصت في اهتمام وهو يلقي بنظراته إلى وجهها الجميل وجسمها الصغير الملفوف.. ويفكر: "يا لها من ذكية بارعة.. يا لها من زوجة نموذجية ليته يعثر على زوجة مثلها".. ولما فرغت من حديثها، إنحنى لها بإحترام وقال:

– شكراً على عطفك.. لن أنسى نصائحك هذه.

فأرسلت ضحكة قصيرة ثم تعلقت نظراتها في لحظة خاطفة بنظرات إيليا وأردفت قائلة:

– طاب يومك..

ثم غادرت الغرفة بخطوات رشيقة كأنها خطوات فتاة صغيرة سعيدة بالحياة. وأخذ إيليا مع كل يوم يزداد حباً للزوجين الشابين. لقد رأى من تصرفات رجال الشرطة ما جعله يكرههم بكل قلبه، ولكن كيرك أثبت – رغم غبائه– أن بينهم أناساً طيبين. وكان إيليا يراه أقرب إلى أحد العمال منه إلى رجل شرطة. كان الجسم في البيت، وكانت تانيانا العقل المفكر. ولم يكن لآرائه في البيت أية قيمة، كما أنه لم يكن يمضي فيه غير فترات قليلة في المساء وفي الصباح.

أما تانيانا فقد أخذت ترفع الكلفة بينها وبين إيليا مع مرور الوقت. وكانت تطلب منه أن يأتي لها بأخشاب الوقود، وبالماء، وأن يحمل دلو المياه المستعملة لتفريغها في الخارج وبقلب مفعم بالسرور كان إيليا يقوم بهذه الأعمال كلها وما هي غير فترة وجيزة حتى أصبحت من الواجبات المنوطة به.

وسرعان ما استغنت إيليا عن الخادمة إلا يوماً واحداً في الأسبوع. وكان الزوجان يستقبلان بين الحين والآخر بعض الضيوف وكان بينهم نائب مأمور المركز، وهو يدعي كورساكوف، نحيل الجسم، مفتول الشارب، يضع على عينيه نظارة سوداء، ويدخن السيجار الأسود. ولم يكن يتحدث إلا

عن وسائل الركوب وكراهيته لها، ورغبته في تخليص المدينة منها. ولم يحدث قط أن سمعه إيليا يتحدث عن موضوع آخر.

ومن الضيوف أيضاً كان السيد جويزلوف، مدير الملجأ بالمدينة. وكان رجلاً متحفظاً قليل الكلام، وكانت زوجته سيدة طويلة القامة، ضخمة الجسم، كبيرة الأسنان، لا تكف عن إلتهام الحلوى والفطائر، مما كان يثير الغضب في نفس تانيانا فتقول:

– إنها تتعمد إلتهام الحلوى لتغيظني..

من هؤلاء الضيوف أيضاً كانت الكسندرا تراكينا وزوجها وكانت سيدة طويلة نحيلة حمراء الشعر.. أما زوجها فكان يتحدث همساً، دائماً، بسبب إصابة في حلقه. ومع هذا لم يكن يكف عن الحديث.

وكان إيليا –وهو في غرفته– ينصت باهتمام إلى آرائهم عن الحياة وكان ما يسمعه يثير في نفسه الحيرة والإرتباك. ذلك أن هؤلاء الناس كانوا –كما يلوح له– قد حلوا جميع مشكلاتهم، ولم يبق أمامهم إلا أن يحتقروا أولئك الذين لا يرتفعون إلى مستواهم.

وفي بعض الأحيان كان الزوجان يدعوان إيليا لشرب الشاي معهما فكانت تانيانا تضحك، وكان زوجها يتحدث عن أمنيته في شراء منزل خاص به. ثم يتحدث الزوجان عن كل ما يتمنيان تحقيقه إذا ظفر بالثروة، وكان إيليا ينصت إلى أحاديثهما في هدوء، ولكنه كان يتمنى لو انهال عليهما بالضرب عندما يكون عائداً بعد جولة في السوق غير موفقة. إلا

أنه كان يكتفي بالإنصات إليهما في صمت وهو يخشى أن ينطق بكلمة حتى لا يجرح مشاعرهما. وفي ذات ليلة نظر إلى كيرك بحدة، أثناء لعب الورق، وقال له:

– ألم تقبضوا على الرجل الذي قتل المرابي العجوز؟

ورد كيرك في شرود ذهن:

– أتعني بولكتوف؟!

ثم يردف قائلاً وهو ينظر في أوراق اللعب:

– بولكتوف؟ لا.. وما شأني أنا.. إنني لست مكلفاً بالبحث عن قاتله.. فليذهب معه إلى الجحيم.. إن كل ما أريده الآن ولد باستونى..

ولكن إيليا يقول في إلحاح:

– لا شك أن مرتكب الجريمة شخص قوي الأعصاب حاد الذكاء..

– عليه اللعنة..

– تصور مدى جرأته وهو يرتكب جريمته في وضح النهار..

– إنها ليست جرأة، وإنما حظ.

فنظرت تانيانا إلى زوجها في دهشة وغمغمت قائلة:

– أتقول عن الجريمة حظاً..

– لا.. أعني الهرب من العدالة..

ثم أردف قائلاً كأنما يحدث نفسه:

– وإن كنت حتى الآن لم أر أحداً يهرب من عدالة الأرض أو عدالة السماء.

ونظر إيليا إلى الزوجين.. ولما رأى إمارات السعادة على وجهيهما شعر بالنفور من الإستمرار في الحديث عن الجريمة. وإزداد الزوجان تعلقاً بإيليا على مر الأيام.. وفي ذات ليلة ضربه كيرك على كتفه مداعباً وقال له منبسطاً:

إنك تضيع حياتك هباء أيها الصديق.. إن شاباً قوياً لطيفاً مثلك يجب أن يقوم

بعمل أكبر من بيع السلع في الطريق.. إن الشرطي الذكي لا يقبل أن يقضي حياته شرطياً عادياً.. ثم أخذت تانيانا تسأله –تفصيلياً– عن عمله.. بكم يبيع في اليوم، وما مقدار أرباحه، ونسبة الربح في كل سلعة، ومدى الإقبال عليها، وكل شيء وكان إيليا يزداد إحتراماً لتانيانا كل يوم، ويعجب من قدرتها على تهيئة هذه الحياة النظيفة المستقرة لها ولزوجها بمثل ذلك المرتب البسيط الذي يتقاضاه كيرك..وفي ذات ليلة قالت له:

– إن لدينا مشروعاً تعتقد في نجاحه ونحب أن نتحدث معك بشأنه جدياً.

وضحك كيرك وقال:

– إن لزوجتي هذه الصغيرة عقلاً كبيراً يا إيليا..

وقالت تاتيانا:

– لقد ادخرنا مبلغاً من المال.. نحو ألف روبل.. وهو في البنك الآن يدر علينا ربحاً قدره أربعين روبلاً في السنة.. أي بنسبة أربعة في المائة.

وقال كيرك وهو يضرب المائدة بيده:

– وهذا الربح لا يكفي.. إننا نريد المزيد..

وأسكتته زوجته وقالت:

– إنه يكفينا ويزيد. ولكننا نريد أن نساعدك لتبدأ حياتك من جديد، إننا على استعداد لأن نقرضك هذا المال نظير إيصال إستلام، كأمانة، لكي تفتتح به متجراً للخردوات، ثم نتقاسم الأرباح.. ما رأيك؟!

أطرق إيليا برأسه، وخشي أن يرفع عينيه إليها فيدركان مدى ما شعر به من سعادة في تلك اللحظة. إن أمل حياته كلها يضيء أمامه فجأة. وقالت تانيانا في رفق:

– فكر في هذا الأمر متمهلاً وقلبه على جميع النواحي، وانظر إليه من جميع الزوايا.. فإذا تأكدت من قدرتك على تنفيذ هذا المشروع فسوف يكون المبلغ بين يديك عند الطلب.

وقال إيليا ببطء:

– يمكنني أن أضيف إلى هذا المبلغ ألف روبل أخرى.. إبن عمي وعدني بإعطائي هذا المبلغ عندما أشرع في إفتتاح متجر خاص بي..

وهتف الشرطي كيرك قائلاً:

– مرحى.. مرحى..

وقالت تانيانا:

– إذن فأنت موافق؟!

وصاح زوجها:

– لا شك أنه موافق.. لنحتفل الليلة بنجاح المشروع، لنشرب شمبانيا.. شمبانيا حقيقية وليست مزيفة.

وخيل إلى إيليا أنه يرى في وجهي هذين الزوجين إبتسامة القدر بعد طول عبوس.

الفصل العاشر

تانيانا وإيليا تحدثا عن تفاصيل مشروعهما الجديد، وبدا له من حديثها أنها على دراية كبيرة بتجارة الخردوات. وكان إيليا يبتسم ويوافق على كل اقتراحاتها دون أن يفهمها. ويبدو أنها أعدت كل شيء، حتى اختيار المكان المناسب وكان مكاناً مثالياً بالنسبة له. حانوتاً له غرفة خلفية ملحقة به وفي حي من أحياء المدينة المحترمة النظيفة. وبهذا الإحساس الطاغي من البهجة، ذهب لزيارة صديقه في المستشفى ووجد بافيل في حالة ابتهاج أيضاً، إذ قال له بمجرد أن رآه:

– لسوف أخرج غداً، تلقيت رسالة من فيرا وهي غاضبة مني.. تلك البغي!

وقال له إيليا ناصحاً:

– كن على حذر.. إياك والعدوى مرة أخرى.

– لا تخف.. إن المسألة الآن هي: إذا قبلت فيرا الزواج بي، فلن يحدث إلا كل خير.. وإذا رفضت، فليس لها عندي غير السكين.

وسرت في جسم ايليا رعدة وقال:

– حذار أن تفعل شيئاً من هذا القبيل يا بافيل!

– إنني مصر على هذا. إنني لا أستطيع الحياة بدونها. ويكفي ما فعلته بي ومن حقي أن أعيش معها في أمان وسلام. وغداً سأستقر على أمر.. أما هذا أو ذالك.

ونظر إيليا إليه برهة، ثم قال وقد إحمر وجهه:

– بافيل.. لقد حالفني الحظ أخيراً..

وسرد عليه مشروع المتجر بإيجاز.. وقال له بافيل متنهداً:

– إنك شيطان سعيد الحظ يا إيليا!

وأرسل إيليا ضحكة قصيرة وقال:

– شكرا على هذا الثناء.

– إنني لا أقول هذا مجاملة وإنما هي الحقيقة..

ولما أطرق برأسه في ذلة، فقال له إيليا:

– لقد أردت أن أشركك معي في بهجتي كما اشتركنا معاً في بؤس الحياة.

فهز بافيل رأسه قائلاً:

– سمعت أن الحظ السعيد كالمرأة، لا يشترك في زواجها إثنان!

فهتف إيليا قائلاً:

– هذا غير صحيح.. ما عليك إلا أن تذكر لي أملك الذي تريد أن تحققه وسوف أساعدك.. هل تريد أن تفتتح حانوتاً للسباكة، أو مطبعة صغيرة؟ أخبرني بما تريد وسوف أمنحك المال اللازم.

ونظر بافيل إليه في دهشة الذي لا يصدق، فقال له:

– إنني جاد فيما أعرض عليك يا بافيل..

ولكن بافيل هز رأسه وقال بإرتياب:

– إن هذا لا يحدث في الحياة.. إنني لا أصدق..

ولما استطاع إيليا أن يقنعه، عانقه بافيل قائلاً:

– شكراً يا صديقي إنك تنتشلني من هاوية سحيقة.. ولكن.. أنا لا أريد أن أمتلك حانوت سباك.. اللعنة على جميع الحوانيت.. ولكن أعطني المبلغ الذي تريد أن تمنحه لي، وسوف أصحب فيرا وأرحل، لسوف نذهب إلى مدينة أخرى وأبحث عن عمل جديد..

فقال إيليا:

– من الأفضل أن تكون سيد نفسك..

– إنني لا أصلح.. لا يمكنك أن تضع جلد أسد على حمار وتقول أنه أسد..

– حسناً.. إنك أدرى بمصلحتك.. تعال غداً وخذ المبلغ مني والآن سأذهب لأرى ياكوف.. كيف الحال بينكما؟..

– إن بيكوف شاب غريب الأطوار لا يكف عن الثرثرة حول الروح والجسد وماذا بعد الموت.. وما إلى هذا اللغو كله.

– إنه شيطان سيء الحظ!

وهز بافيل كتفيه وقال:

– كلنا مثله.. وإنني أكرر لك الشكر أيها الصديق..

وذهب إيليا إلى غرفة ياكوف فوجده راقداً على ظهره محملق العينين شارد الذهن. فقال له:

– لا بأس.. إنني لا أستطيع أن أبقى مريضاً كما أشاء حتى هذه النعمة محرمة علي لقد حضر أبي أمس وقال أنه اشترى بيتاً جديداً وسيفتتح حانة أخري وسيعهد إلي بإدارتها.. وقد تزوج إمرأة قصيرة بدينة.

وأراد إيليا أن يخبره بما ناله من حظ سعيد، ولكنه لم يستطع وعاد ياكوف يقول:

– لو كان في مقدوري أن أموت كثيراً ما فكرت في جمال الموت. إن الملائكة اللطاف يمكنهم أن يجيبوا على كل أسئلتي. هل رأيت ماشا يا إيليا؟!

– لا.. إن رأسي لا يستطيع أن يحوي كل شيء..

– تعني قلبك.. لا رأسك؟..

– على الإنسان أن يكون له قلب فولاذي، وأعصاب فولاذية لكي يستطيع الإستمرار في هذه الحياة..أما أنا، فمثل الزجاج بين حجرين.. كلياً تحركت أصبت بشرخ أو بكسر..

– إنك تحب الشكوى والتذمر يا ياكوف..

– وأنت؟

فهز إيليا كتفيه ثم قال وهو يستدير ليخرج:

– إنظر إلى حالة بافيل..

– إنني لا أحبه..

– لماذا؟..

– لا أدري.. لا أشعر نحوه بحب.. وكفى..

ومرة أخرى هز إيليا كتفيه وقال:

– لقد حان وقت إنصرافي..

ومد ياكوف يده مصافحاً وقال:

– أرجوك.. بحق الله، أن تسأل عن ماشا..

– سأفعل...

وخرج إيليا من المستشفى وهو يتنهد.. وعاد إلى باب المسكن في تلك الليلة متأخراً. ومن ثم كان يشعر بالخجل وهو بضغط برفق على الجرس. لقد أحس من هدوء المسكن، أن الزوجين مستغرقان في النوم ولكنه فوجيء بالباب يفتح بسرعة، وإذا تانيانا في قميص النوم الأبيض تقف وتفسح له الطريق قائلة:

– إدخل بسرعة وإغلق الباب.. إن الجو بارد، وزوجي لم يحضر بعد..

وغمغم إيليا قائلاً في خجل:

– إنني أسف..

– لقد تأخرت كثيراً.. أين كنت؟

وأغلق إيليا الباب، واستدار ليرد على سؤال تانيانا.. وفوجيء بها واقفة أمامه بصدرها

العاري النافر.. وبدلاً من أن تتراجع عنه تقدمت نحوه. ولم يستطع هو أن يتراجع لأن الباب وراءه وأرسلت هي ضحكة رقيقة.. جذابة.. ورفع إيليا يديه ووضعهما على كتفيها برفق وهو يشعر بالخجل أمام هذه المرأة الجميلة الصغيرة، وشبت هي على قدميها وطوقت عنقه بيدين حارتين وتمتمت بصوت كتغريد الطيور:

– ماذا تقصد من بقائك كل هذه الساعات في الخارج، ألا تجد هنا ما يغنيك عن الخارج يا حبيبي وخيل إلى إيليا أنه يعيش في حلم جميل وهو يتلقى قبلات تانيانا النارية، ويشعر بإختلاجات جسدها وهي تلتصق به في عاطفة مشبوبة.

وإستيقظ في صباح اليوم التالي وقلبه مليىء بالخوف. كيف يمكنه بعد ما حدث أن ينظر في وجه كيرك؟ لشد ما يشعر بالخجل مع الخوف؟ وفكر لنفسه: لو كان بيني وبينه عداء!! لو كنت فقط أكرهه؟ إما أن يحدث هذا كله بلا أدنى سبب أو مبرر، إنه شي لا يمكن أن يطاق وخامره إحساس بالعداء نحو تانيانا وأيقن أن كيرك سوف يشعر بخيانة زوجته إن عاجلاً أو آجلاً. وعاد إلى تفكيره:

"لقد ألقت بنفسها علي.. ولا شك أن هذا يرضي غرور الرجل في نفسي وكيف لا وقد ظفرت بعواطف امراة حقيقية.. امرأة من المحصنات.. امراة نظيفة.. متعلمة وزوجة لرجل محترم. لابد أنني أتمتع بميزة ما.. حقاً إن ما حدث شيء مخجل، ولكنني لست صخراً. ماذا كان بوسعي أن أفعل وأنا أتعرض لهذا الإغراء؟".

ولكن أفكاره لم تلبث أن تحولت إلى مجري آخر: "ها أنذا أدفع إلى مأزق جديد! فهل أنا الملوم؟ إنني كنت أحترمها كأخت. لم أفكر لحظة واحدة في إشتهائها كإمرأة،ومع ذلك.. أنظر ماذا حدث؟".

وبعد برهة أخرى اختلطت الأفكار في نفسه، ولم تلبث أن إنحسرت أمام الإحساس بالبهجة لدخوله هذا العالم الجديد.. العالم النظيف.. العالم البعيد عن الشوارع وبنات الليل.

ولكنه لم يلبث أن تساءل: هل يمكن أن يكون مثل هذا العالم نظيفاً وقرر أن يبقى في فراشه إلى ساعة متأخرة من الصباح، أو على الأقل حتى يخرج كيرك إلى عمله. ولم يلبث أن سمعه وهو يقول بعد أن قبل زوجته بضع مرات:

– ما رأيك في كرات اللحم المفروم للعشاء هذه الليلة ياحبيبتي؟ أكثري من اللحم فيها وإسلقيها ثم قمريها حتى تتورد كخديك... وحذار أن تبخلي بالفلفل والبهار.

وقالت تانيانا بحرارة:

– إنني أعرف ماذا تحب من الطعام يا زوجي الحبيب. والآن أسرع بالذهاب إلى عملك وإلا تأخرت..

وجفل إيليا حين سمع طرقعة قبلتها لزوجها! يا للعار؟ إنه موقف مزر، ولكنه لا يخلو من طرافة!

وما كادت تانيانا تغلق الباب وراء زوجها حتى هرعت إلى غرفة إيليا ووثبت إلى جانبه بالفراش وقالت ملهوفة:

– قبلني.. قبلني يا حبيبي الوسيم.

فقال إيليا في قطوب:

– لكن قبلة زوجك لا تزال على شفتيك!

فهتفت بابتهاج وهي تشب وتسدل الستائر على النافذة:

– ما هذا؟ أهي الغيرة؟ مرحي.. مرحي.. إن الغيرة شيء رائع.. إنها تلهب عواطف الرجل..

– إنني لم أقل هذا بدافع الغيرة.

فوضعت كفها الرقيقة على شفتيه، وقالت:

– كفى حديثاً..

وقال إيليا وهو ينظر إليها بإبتسام:

– إنك مخلوقة بالغة الجرأة. من يصدق أنك تفعلين هذا كله تحت أنف زوجك؟!

فبرقت عيناها المائلتان إلى الإخضرار، وقالت:

– وليس في هذا شيء غريب! إن النساء الدميمات أو المريضات هن فقط اللاتي لا يبحثن عن مغامرات الحب!.

ثم راحت تبرر سلوكها وتقص عليه أنباء الزوجات اللاتي يخدعن أزواجهن، وكلما استطردت في حديثها، إزداد إيليا شعوراً بأن ذلك العالم النظيف الذي يحلم به ليس إلا عالماً وهمياً لا وجود له.

ولكنه لم يسعه، وهو يشرب وينصت إلي حديثها، إلا أن يفكر في أولمبيادا. لقد أدرك فجأة أن أولبيادا –المحرومة من التعليم ومن حياة الإستقرار والزواج– كانت أفضل كثيراً من هذه المرأة..كانت أكثر رقة وعطفاً وإتزاناً.. كانت بسيطة.. وصريحة، ولا تزهو بما ترتكب من آثام، ولا تبرر أخطاءها.. إنما تطلب الغفران دائماً!

وفي النهاية قال وهو يغتصب ضحكة جوفاء:

– لم أكن أتصور أن يحدث هذا في وسط عائلي نظيف.

– إن هذا يحدث في كل مكان.. وفي كل وسط.. بين الفقراء، وبين الأغنياء، بين الجهلة، وبين المتعلمين.. أنه

ثم وضعت يديها على كتفه وقطعت حديثها بضحكة وقالت:

– لماذا تحملق في وجهي هكذا؟ هل تشمئز من حديثي؟

– إنني لا أحملق! ولكنني أفكر فقط في أن ما تقولينه قد يكون حقاً، ولكنه ليس لطيفاً ولا نظيفاً..

فانفجرت ضاحكة وقالت:

– لماذا؟ إشرح لي وجهة نظرك؟

ولم يدر إيليا ماذا يقول، ولكنه تساءل فقط:

– هل معنى هذا أنه لا يوجد في هذه الحياة شيء نقي أصيل؟

وابتسمت قائلة:

– يا لك من مسكين؟ هل هناك أكثر أصالة من الحب بكل أنواعه؟ والآن.. حدثني عن أول مغامرة لك مع النساء..

وأثارت هذه الذكرى الشعور بالخجل والإشمئزازا في نفس إيليا.. وقال:

– ينبغي أن تخجلي من توجيه مثل هذه الأسئلة.

ولكنها ضحكت.. وتعلقت به، وانهالت على شفتيه بالقبل..

وهكذا ظلت معه.. كلما أدركت أنه ضيق الصدر، مشمئز من الموقف، وأسرعت وأثارت فيه الإحساس بالرجولة وألهبت دماءه، وأذابت بلهيبها كل إحساس أخر بالإشمئزاز منها أو الكراهية.

الفصل الحادي عشر

كان إيليا يشرف على أعمال النجارين في المتجر الجديد، حين فوجيء بتانيانا تقول:

– إن سيدة تدعى ماتيتزا تنتظرك منذ ساعة.

وهتف إيليا حين رأى ماتيتزا تنهض بتثاقل لإستقباله:

– ماتيتزا.. ألا زلت على قيد الحياة..

فردت ماتيتزا قائلة بوجه جامد التعبير:

– حتي الخنازير تحيا على القمامة..

نظر إيليا إليها في إشفاق. كانت ترتدي ثوباً ممزقاً، وتعصب رأسها بمنديل حائل اللون، ولا تضع في قدميها شيئاً. وكانت تنقل خطواتها ببطء شديد وهي في طريقها إلى غرفة إيليا. وكانت تقول:

– إنني سأعجز بعد قليل عن المشي.. أي عن التسول.. ومعنى هذا النهاية.

– كيف تعيشين يا ماتيتزا؟

– بإستجداء كسرات الخبز عند أبواب البيوت والكنائس.. لقد جئت لأحدثك عن ماشا فأرجو ألا تكون قد نسيتها بعد أن أصبحت من الأثرياء..

– ماذا جرى لها؟

– إطمئن.. إنها لم تشنق نفسها بعد..

– أرجوك أن تتكلمي..

– نعم.. إن إحساسي بالذنب هو الذي دفعني للحضور إليك.

عندئذ تنهدت وراحت تسرد عليه مأساة ماشا.. وكيف يغار عليها زوجها العجوز، وكيف يسجنها بمفردها بعد أن أرسل أبناءه إلى ملجأ، وكيف كان يعذبها كلما عجزت من الإستجابة لرغباته الوحشية، وكيف هربت مرتين ولكن رجال الشرطة كانوا يعيدونها إليه، فلم تجد المسكينة من يدافع عنها أو ينقذها.

وقال إيليا بغضب:

– كل هذا نتيجة ما فعلته بها.. أنت وبرنشكا..

– كنا نحسب أننا نخدمها ونهيىء لها حياة مستقرة..

– وماذا تريدين مني أن أفعل؟

– إنك تقيم مع رجل شرطة، وهو واحد من هم الذين يقبضون عليها.. قل لهم أن يمتنعوا عن إعادتها إلى زوجها ليتركوها تهرب.. ألا يوجد مكان تهرب إليه في هذه الدنيا؟ والآن وداعاً.. إن أيامي أصبحت معدودة.. شكراً على كل شيء أيها الرجل الغني.. النظيف.

بعد خروجها، أسرعت تانيانا إلى إيليا وعانقته قائلة:

– أهذه هي غرامك الأول؟!

فأزاح إيليا ذراعيها عن عنقه وقال بحزن:

– إنها تحتضر.. ولكنها تحاول أن تؤدي أية خدمة نحو الذين تحبهم..

فنظرت إليه وغمزت بعينها قائلة:

– ومن هم الذين تحبهم؟

– مهلاً يا تانيانا.. مهلاً.. ليس هذا وقت المزاح..

وبعد أن سرد عليها مأساة ماشا، قال لها:

– والآن.. ماذا ينبغي أن أفعل؟

– لاشيء.. إن القانون يمنع أي إنسان من التدخل بين الزوج وزوجته..

ولما رأته يقطب جبينه بعنف، أسرعت تقول:

– عليها بالصبر.. إنه عجوز.. وسوف يموت عاجلاً، وعندئذ تتحرر منه وترث جانباً كبيراً من أمواله، وتتزوج مرة أخرى وتذوق طعم السعادة، ما رأيك في هذا الحل.. وأنت عليك أن تنفض يديك من أصحابك القدامى. فهم بلاشك يسببون لك الحرج.. إنهم حثالة.. مثل ذلك الشاب الذي اقترض منك مبلغاً كبيراً من المال.. أتذكره!

– بافيل جراشوت..

– نعم.. ما أعجب هذه الأسماء التي يطلقها هؤلاء الناس على أبنائهم.

كان إيليا ينصت إليها وهو يعود بذاكرته إلى الوراء.. إلى تلك الخيوط القوية الخفية التي تربطه دائماً إلى بيته بتروشكا... وكان يعرف أن شبح هذا البيت سوف يمنعه من الشعور بالبهجة مدى الحياة. وأخيراً تحقق أمل إيليا في المتجر.. وراح يقف فيه من الصباح إلى السماء، يشبع عينيه بمنظره، ويملأ قلبه بالنشوة. وكانت الأرفف نظيفة منسقة تنوء بالعلب والصناديق الورقية، وكانت الواجهة تعرض في تناسق رائع ألواناً من المساحيق وأدوات التجميل والعطور والصابون والشرائط وغيرها. وكان كل شيء يبدو متألقاً مرتباً يلفت الأنظار،حتى هو كان يقف في متجره وسيماً وقوراً يتعامل بإحترام مع عملاء محترمين مهذبين. وعلى الجملة أخدت الحياة تجري به في بساطة ويسر وبلا متاعب أو تعقيدات.. وتراجع الماضي وراء غلالات من الضباب، ولم يعد يفكر في متجره وعملائه وسلعه.

واستعان لمساعدته بغلام هاديء الأخلاق، نظيف الملابس، يدعي جافريك وقد قال له يوم جاء به إلى المتجر لأول مرة:

– إنك تتعامل مع أناس نظفاء ولهذا يجب أن تهتم بالنظافة يا جافريك..

وكان الغلام في الثانية عشرة من عمره، رمادي العينين، معبر الوجه. وكان قد فرغ من دراسته الأولية وبدأ ينظر إلى نفسه كرجل يسير في أول طريق الإعتماد على النفس. وقد أحبه إيليا من اليوم الأول.. وقال له ذات يوم ناصحاً:

– عندما لا يكون هناك ما تعمله يا جافريك، إشغل نفسك بقراءة كتاب. لسوف تدهش حين تجد الوقت يمر بسرعة أثناء القراءة.

وهدأت نفسية إيليا، وانحسر الحقد منها، وأصبح وادعاً تقول إبتسامته للناس: أترون أنني رجل سعيد الحظ. وعليكم بالصبر.. فسوف يؤأتيكم الحظ يوماً.

ولكن شبح الجريمة كان يطوف بإيليا بين الحين والآخر، فيثقل عليه ويحجب عنه الشعور بالبهجة، ويحاول الشاب أن يتخلص منه بسرعة، فيتحدث مع جافريك:

– بماذا يشتغل والدك يا جافريك؟

– موزع بريد..

– هل أسرتكم كبيرة؟

– نعم.. عددنا كبير.. وبعضنا صغير السن.. وبعضنا كبيره.

– كم عدد الصغار؟

– خمسة.. وثلاثة كبار.. صالحون للعمل.. أنا أحدهم وفازيلي عامل برق في سيبيريا. وأختي سونيا تعطي دروساً خاصة أنها بارعة، وتكسب نحو إثنى عشر روبلاً في الشهر.. وأخيراً أخي ميشا الذي يدرس الألعاب الرياضية بالمعهد.

– إذن فأنتم أربعة كبار!

– لا.. إن ميشا لا يزال طالباً بالمعهد. إن الكبار فقط هم العاملون.

– وهل أنتم أسرة فقيرة؟

– طبعاً ولكنني سوف أصبح غنياً حين أكبر.. سوف ألتحق بالجيش، وأحارب الأعداء، كما فعل عمي الضابط كيركو.. لقد نال وساماً وخمسة روبلات على بطولته..

* * *

وفي المساء، عندما يغلق المتجر كان إيليا يدخل الغرفة الخلفية الملحقة به. وهناك يشترك مع جافريك في تناول الشاي والعشاء، ثم يعود الغلام إلى المتجر لينام. أما إيليا فيظل بجوار موقد الشاي ساهراً ساعة أو

ساعتين. ولم يكن بالغرفة إلا الأثاث الضروري لشاب أعزب. سرير مفرد ومتكأ ومقعدان. وصوان ملابس ومائدة وموقد للطهو وآخر للشاي.

وكان لها نافذة مربعة تكشف عن أرجل المارين بجوارها وعن أسقف المنازل في الجهة الأخرى من الشارع وفي بعض الأحيان كان بافيل يمر عليه أثناء عودته من العمل إلى البيت، ويجلس معه لحظات. وكان وجهه يبدو دائماً ملطخاً بالهباب، وقميصه مكمئاً قذراً، وكان دائما يحضر وهو يحمل أنابيب رصاص أو قطعة نحاس أو شيئاً ما من الأشياء التي يتكون منها محل السباكة الذي يعمل به. وكان دائماً يبدو متعجلاً.. فإذا طلب منه إيليا أن يطيل زيارته، قال:

– لا.. لا.. إن في مسكني طائراً نارياً.. أخشى أن يحطم القيود ويطير؟ آه: فيرا.. فيرا..

ترى آية أفكار تخامرها وهي جالسة بمفردها تنتظر عودتي طيلة اليوم. لا شك أن الملل يكاد يقتلها.. آه لو كان لنا طفل.

ثم يتنهد بعمق..

وفي مرة أخرى قال:

– لقد سكبت كل مائي في الحديقة.. فلا شك أنني أفسدت تربتها.

وقال في مناسبة ثانية:

– إنني أكتب بإصبعي على صفحة السماء اللعنة على كل شئ.. من نحن حتى نجلس بملابسنا القذرة على مائدة الحياة الشهية؟ لقد فقدت عقلي هذه المرة تماماً يا إيليا. لم تعد لي ذرة من إلهام. إن كل تفكيري منحصر فيها، فكيف أفكر في شيء آخر. يا للمسكينة.. إنها تعسة في حياتها..

– وأنت؟

– وأنا أيضاً.. ولكنني ألفت هذا اللون من الحياة، أما هي فقد إعتادت على البهجة والسهر والشرب وهي دائماً تحلم بالمال.. دائماً تقول أن المال يمكن أن يغير كل شيء. وكثيراً ما تقول إنها آسفة لأنها لم تستطع أن تستنزف أموال تاجر عجوز.. أي تاجر.. ومما يزيد تعاستها إمعان تفكيرها في أمري. وفي بؤس حياتي.. ثم يسرع إلى البيت وقد إزداد شعوراً بالقلق.

* * *

وكان إيليا يذهب بين الحين والآخر إلى بيت بتروشكا حيث يلتقي بالإسكافي برفشكا واقفاً أمام الحانة، مشعث الشعر، أحمر العينين، ممزق الثياب، والأكرديون تحت ذراعه. وكان يسرد عليه في كل مرة أخبار ما يحدث في بيت بتروشكا، فيقول:

– إن زوجة بتروشكا الجديدة هي أداة العدالة الإلهية. إنها إمراة دميمة قوية الجسم، سليطة اللسان، تذيقه ألواناً من العذاب، أما ياكوف فهو يبدو دائماً كالصرصار الذي يبحث عن جحر يختفي فيه.

إنه لا يكف عن الشراب، مثلي، ليلاً أو نهاراً. والسعال يكاد يقضي عليه.. إنه مصاب بالسل.. وأبوه وزوجة أبيه تأكلانه حياً.. لا يكفان عن إيذائه بسبب وبغير سبب. إنه كالنبات البري الضعيف الذي يدوسه كل إنسان دون أن يحفل أحد بأمره.. ولا يزال عمك ترنتي في كييف. ولست أدري ماذا يفعل هناك؟ وقد أصبحت ماتيتزا معقدة تماماً وهي تجلس في عربة يد يسوقها شحاذ أعمى ويتسولان معاً.. إن منظرهما عجيب، ولكنهما يجدان دائماً ما يأكلانه. وهى لا تزال طيبة القلب كالمعتاد.

– وكيف حال ماشا؟

وتختفى الإبتسامة من وجه الإسكافي عند ذكر إبنته ماشا. وتحل الكآبة محلها وهو يقول:

– لا أعرف عنها شيئاً. إن زوجها العجوز يهددني بتحطيم عظامى إذا مررت أمام البيت. إيليا.. أرجوك أن تعطيني ثمن كأس من الخمر.. لقد جف حلقي من فرط الحديث معك.

– إنك رجل ضائع يا برفشكا..

– نعم.. ضائع إلى الأبد.. لقد انتهت حياتي. ولكن كثيراً من الناس سوف يذكرونني بالخير بعد مماتي،لأني طالما أضحكتهم وأسعدتهم بعز في على الأكوديون. ولكن لا تنسى إننا سنرقد معاً في مكان واحد عند النهاية، وسوف يعذبنا الشيطان جميعاً لأننا أطعناه. ومن حق الرجل المرح مثلي أن ينال حظه من الحياة كأي إنسان آخر..

وكان إيليا يشعر بالرثاء لبرفشكا، ولبافيل كلما تحدث إليه. وكان لا يكف عن إعطاء بافيل مبلغاً بسيطاً من المال بين الحين والآخر، ويقول له وهو يهز كتفيه:

– إنني لا أدري كيف أساعدك بطريقة أخرى. وأعتقد أن خلاصك من هذا البؤس يتركز في تخلصك من فيرا..

ولكن بافيل كان يقول له مؤكدا:

– لا أستطيع. إن في مقدورك أن تتخلص من شيء لا تريده، ولكنني أريدها.. في حاجة إليها.. إنني أعرف أن هناك من يريد إنتزاعها منى. ولكنهم لن يستطيعوا.. ولعلي لا أحبها بقلبي، وإنما بمشاعرى المترعة بالحقد والغضب. إنها كل سعادتي في الحياة. فإذا تنازلت عنها، فماذا يبقى لي. لا.. لن أتركها لغيرى. لسوف أقتلها أولاً..

ويربد وجه بافيل بالثورة، ولكن إيليا يهدىء ثائرته ويقول:

– هل لاحظت أن هناك من يسعى ورارها؟

- لا..

- إذن لماذا تقول إنهم يريدون إنتزاعها منك؟

- إنهم يحاولون.. هناك قوة تريد أن تنتزعها مني. لقد تحطمت حياة أبي بسبب إمراة.. ويبدو أن هذا هو مصيرى أيضاً.

ويقول إيليا وهو يهز كتفيه ويشعر إنه أدى واجبه:

- إذن فليس هناك ما يمكن أن أفعله لك..

ويقطب بافيل جبينه ثم يقول بصوت يقطر بالمرارة:

- أعرف إنك لا تستطيع مساعدتي. لقد صنعت لنفسك هنا ركناً آمناً بعيداً عن بؤس الحياة. ولكن إسمع: إن هناك من يسهر الليل يفكر في طردك من هذا الركن الآمن. وسوف يأتي اليوم الذي تطرد منه، إما برضاك أو رغماً عنك..

فقال إيليا ساخراً:

- وإذا رفضته؟

ولكن بافيل أجاب قائلاً في حدة وهو يحملق في وجه صاحبه:

- لن يكون لك الخيار.. إنك لن تستطيع أن تقضي حياتك كلها جالساً هكذا في هذا الركن المظلم.. إنك إما أن تلجأ إلى الخمر أو تفلس..

– ولكن لماذا؟

– لأن هذه الحياة لا تتفق مع طبيعتك.. إنك شاب نشط طموح.. وأن كثيراً من الناس يعيشون طول حياتهم أصحاء، ثم إذا هم يسقطون فجاة..

– ماذا تعنى بالسقوط؟

– أعني الموت..

وتنفس إيليا بعمق وقال ضاحكاً:

– كلام فارغ..

ولكن كلمات بافيل هذه كانت ترتد إليه وهو جالس ليلاً بجوار موقد الشاي في غرفة النوم، وعندئذ يفكر في علاقته التجارية بتانيانا.. حقاً إنه يشعر بالعرفان لجميلها لأنها ساعدته على تحقيق أسطع أمل في حياته، ولكنه يلاحظ في الأسابيع الأخيرة إنها تعامله كأجير عندها وليس كشريك ساهم في المتجر بأكثر من النصف.

وشعر بالغضب الشديد عندما انتهى به الفكر إلى هذه الحقيقة، وقال لنفسه:

– إذن فهي تضمني إلى صدرها بقوة حتى تستطيع أن تمد يدها إلى جيبي وتسرقني؟

وقرر أن يستغل كل درهم معه ليشتري حصتها في المتجر ويستقل به لنفسه. ولم يتردد في إتخاذ هذا القرار، لأنه شعر أخيراً أن علاقته العاطفية بها قد بردت وفقدت بهجتها. وقد قال لها ذات يوم حين أسرفت في حديثها الفاجر عن غيرها من النساء:

– إنك إمراة لا تعرفين معنى الشرف يا تانيانا!

ولكنها كانت تضحك وتمعن في ذلك الحديث.. وعندئذ يقول لها:

– إذا صح ما تقولينه، فإن هذه الحياة التي تحيونها لا تساوى قشه.. ولما لا؟ إنها تسلية ومرح؟..

– ومن التسلية والمرح إنتهاك أعراض الناس بالحديث طيلة النهار، وخيانة الزوج طيلة الليل؟

فضحكت وقالت:

– يالك من شاب بسيط ساذج..

وفي ذات مرة سألها قائلا:

– هل تؤمنين بالله يا تانيانا؟!

– ياله من سؤال؟ طبعا أؤمن بالله.. لماذا تسأل؟

– ولكن إذا كنت تؤمنين به، فلماذا..

– إنني أؤمن به لأنه رحيم.. يغفر الذنوب لعباده..

وقال إيليا مستنكراً:

– ألهذا فقط أنت في حاجة إلى الله.. ليغفر لك آثامك؟

وبدأ منذ ذلك الحين يتجنبها، وينظر إليها على إنها إمرأة غريبة عنه، ويسعى سراً لشراء حصتها في المتجر.. وفي خلال هذه الفترة تعرف بفتاة أخرى..

الفصل الثاني عشر

كانت الفتاة الأخرى التي تعرف بها هي سونيا أخت غلام المتجر جافريك. فقد كانت تأتي بين الحين والآخر لترى أخاها وتحضر له بعض الفطائر وتنقل له أخبار الأسرة، وتحمل له ملابس نظيفة. وكانت طويلة القامة متوسطة الجمال، ذلك أن جبينها المرتفع كان كثير الخطوط، وأنفها أكبر مما ينبغي قليلاً، وشفتاها رفيعتان جداً ومزمومتان دائماً .. أما عيناها فكانتا سوداوين واسعتين لهما نظرة حازمة ترغمك على إحترامها. وكانت كلما أقبلت على المتجر، أسرع إيليا وقدم لها مقعدا، فتومئ برأسها وتشكره بكلمة واحدة. ويشرع هو في إختلاس النظر إليها قائلا لنفسه إنها تختلف عن كل إمرأة عرفها من قبل. وكانت ملابسها تنم عن رقة الحال مع الإحتفاظ بالكرامة والحرص على الآباء. وكان إيليا يعجب من فرط كبرياء هذه الفتاة رغم رقة حالتها المالية وكانت بعد أن تجلس مع أخيها، تنهض قائلة:

– وداعاً الآن.. كن مطيعاً ولا تعرض نفسك للمؤاخذة

ثم تومئ برأسها لإيليا وتنصرف، وقال إيليا لجافريك ذات يوم:

– إن لك أختاً جادة أكثر من اللازم.

فضحك الغلام وقال:

– لا تنخدع بمظهرها.. إنها تتظاهر بهذا كله.

* * *

وأخذت الأيام تمر.. حيث إيليا في متجره، يفتل شاربه، ويبيع السلع لعملائه، ولكنه بدأ يشعر بالملل.. وكثيراً ما فكر في إغلاق المتجر يوما كاملاً والتجول خارج المدينة في المزارع، والهواء الطلق، ولكن هذه الأمنية لم يكن قادراً على تحقيقها.. لأن جافريك كان يخشى البقاء بمفرده في المتجر.. وكان إيليا بدوره يخشى أن يتركه وحيداً خشية أن يشعل النار فيه خطأً، أو أن يفطن اللصوص إلى الأمر فيسرقوه، أما علاقته بتاتيانا فقد أخذت تنفصم تدريجيا ولم تعترض هي على هذا الوضع، بل تقبلته، كالمعتاد، بالضحك. واكتفت بأن تراجع حسابات المتجر كل يومين أو ثلاثة مراجعة دقيقة فاحصة. وكان إيليا يشعر أحياناً بالنفور، منها وهي جالسة تراجع الحسابات بوجه يشبه وجه الصقر.. ويعجب لنفسه كيف أحبها يوماً؟ وكيف طاوعته نفسه على الإستغراق معها في تلك العلاقة؟ ولكنها لا تلبث أن تأتي إليه في يوم آخر؛ مضيئة جذابة عابثة، فتظل تغريه وتعبث بعواطفه حتى يجد نفسه في النهاية بين ذراعيها بالغرفة الخلفية.. وفي الوقت نفسه كان زوجها كيريك يأتي لزيارته بين الحين والآخر، ويحدثه عن عمله الجديد كموزع لسلع شركة كبيرة في الأرياف، وعن علاقاته الغرامية

بكل قرية أو مدينة ينزل فيها، وعن أرباحه الشهرية التي تجاوزت الستين روبلا. وفي النهاية كان كيريك يضرب إيليا على كتفه ويقول:

– إنك شاب ساذج يا صديقي.. غير مجرب.. تعلم مني.. لا تترك أية فرصة تفوتك للإستمتاع بالمرأة.. إن المرأة هي بهجة الحياة..

ويحتى إيليا رأسه قائلا:

– سوف أحاول أن أتعلم منك يا عزيزى كيريك..

– أليست لك عشيقة.. واحدة؟

– لي.. زوجة محترمة.. لرجل محترم..

وضحك كيريك وقال وهو يضربه على كتفه مرة أخرى.

– يا لك من ماكر إذن يجب أن تعرفني بها يوما ما وبزوجها أيضاً..

وقال إيليا وهو يحاول أن يكتم الضحك:

– طبعاً.. طبعاً..

وفي ذات ليلة، وبينما كان يهم بإغلاق المتجر، جاءه بافيل وقال بهدوء ودون أن يحييه:

– لقد هربت فيرا..

وتهالك جالساً على مقعد.. وراح يصفر بشفتيه دون أن يعبر وجهه عن شيء.. وقال له إيليا:

– بمفردها أو مع أحد؟

– لا أدري.. لقد هربت منذ ثلاثة أيام..

وحاول إيليا أن يعرف من إمارات وجهه وقع فرار زوجته على نفسه، ولما عجز، قال:

– وماذا تنوي أن تفعل؟

فتوقف بافيل عن الصغير وقال دون أن تختلج عضلة واحدة في وجهه:

– سأقتلها..

– لا زلت تفكر بالعقلية القديمة؟

– لقد حطمت نفسي من أجلها..

ثم أخرج من صديريته سكيناً صغيراً، وأردف قائلاً:

– لسوف أمسك بها من عنقها.

وإختطف إيليا السكين وألقي بها وراءه وقال:

– أتصوب مدفعاً إلى ذبابة؟

كان بافيل مهتاجاً.. ولكنه عاد إلى مقعده وقال:

– لا داعي للسكين.. إن يدى تكفيان..وإذا خذلتني يداي.. فسوف أقتلها بأسناني.

– يا لك من حيوان متوحش؟

– حذار يا إيليا.. لا تسخر مني.. لقد نلت كفايتى من سخرية الحياة..

– ولكن فكر ملياً فيما تنوي أن تفعله..

– لقد فكرت.. ويحسن أن أنصرف. لم يعد هناك ما أقوله لك.. إنك لم تعد صديقاً لي.. لقد أصبحت من ذوي البطون الممتلئة..

ثم إندفع خارجاً من المتجر..وهتف به إيليا لينتظر.. ولكنه لم يحفل به. وقال الغلام جافريك الذي كان جالساً في ركن من المتجر:

– من التي يريد أن يقتلها؟

– زوجته..

– وهل سيقتلها فعلاً؟

– كفى أسئلة يا جافريك..

وتراجع الغلام إلى ركنه وهو يتمتم:

– لماذا يتزوج الناس بحق الشيطان؟

وبعد أن صمت قليلاً، أردف قائلاً حين رأى المصابيح تضاء في الشوارع..

– لقد حان وقت إغلاق المتجر.

- إذن قم بهذا العمل..

وأغلق الغلام الباب، وأغلق المتجر في الظلام، وأدار المفتاح في ثقب القفل مما جعل إيليا يقول لنفسه: وكأننا في سجن، وأخذ يستعيد كلمات بافيل عن كونه من أصحاب البطون المنتفخة، ويشعر -وهو جالس بجوار موقد الشاي- بشئ من العداء لبافيل. إلا أنه كان واثقاً بأن بافيل لن يستطيع الإساءة إلى فيرا..

وقال لنفسه: ليتني لم أدافع عنها أبداً.. ليذهبا معاً إلى الجحيم.. إنهما تعسان وكل إنسان في هذه الدنيا تعس..وقال جافريك وهو يحسو قدح الشاي بصوت مسموع:

- هل تعتقد يا سيدي أنه فرغ الآن من قتلها؟

فنظر إيليا إليه في شرود ذهن وقال:

- إشرب شايك وإذهب إلى فراشك.

وفي تلك اللحظة ظهر شخص ما وراء النافذة من الخارج وقال:

- هل يقيم إيليا هنا؟

وقبل أن يقول إيليا شيئاً، قال جافريك وهو يقفز ليفتح الباب:

- نعم..

ووقفت بالباب المفتوح إمرأة صغيرة الجسم معصوبة الرأس بمنديل وكانت تمسك مقبض الباب بيد، وبالأخرى أطراف منديلها. وكانت تبدو في سمت الشخص الذي يستعد للهرب في أية لحظة.. وقال إيليا ببرود دون أن يتعرف عليها:

- إدخلي..

رفعت رأسها عند سماع الصوت، ثم إبتسمت. وعندئذ صاح إيليا وهو يقفز من مكانه:

- ماشا!

وأرسلت ضحكة خافتة، وتقدمت إلى وسط الغرفة وقالت:

- ألم تعرفني؟!

- كيف تتوقعين أن أعرفك وانت تبدين؟

ثم تناول ذراعها بترحيب مبالغ فيه، ومضي بها إلى المائدة وهو يلاحظ مدي نحافتها وضعفها حتى تكاد ساقاها تعجزان عن حملها.وقال وهو يجلس على مقعد:

- إلى هذا الحد تغير شكلك..

- إن هذا كله من صنع يديه..

وبدت وهى مسترخية أمام ضوء المصباح كإنها شبح، أو هيكل عظمى مكسو بطبقة رقيقة من الجلد البشري.. وكان صدرها المسطح يكاد يكشف عن ضلوعها، وبدأ وجهها غائر الوجنتين، ممتقع اللون كوجوه الموتى، ومن ثم قال إيليا لها وهو يشعر بأشد العطف عليها:

– هل كنت مريضة؟

– لا.. إن صحتى لا بأس بها.. ولكن حالتى هذه راجعة إلى قسوته في معاملتى وقال إيليا لجافريك حين رآه واقفاً ينظر إلى ماشا في خوف:

– إذهب إلى فراشك يا جافريك..

فمضى الغلام إلى المتجر، وراح يتحرك فيه قليلاً، ثم أطل برأسه من باب الغرفة، وفيما كان إيليا يقدم قدح الشاي إلى ماشا، قالت بصوت باكٍ:

– إنه يعذبني عذاب الموت..

وإنفجرت باكية.. وقال لها إيليا:

– إشربي الشاى.. لا داعي للبكاء..

وهزت رأسها وقالت:

– لسوف يعثر علي ويستردني بالقوة..

– هل هربت منه؟

– نعم.. للمرة الرابعة.. كلما عجزت عن الإحتمال وهربت منه.وفي المرة السابقة أردت أن أغرق نفسي في البئر. ولكنه لحق بى وضربني.. لشد ما أتعذب على يديه.

ثم إمتلأت عيناها بالفزع وأردفت قائلة:

– إنه يلوي ساقي ويلسع صدرى بالنار..

فصاح إيليا بغضب:

– لماذا تتحملين كل هذا؟ لماذا لا تبلغين مركز الشرطة عنه؟

– لا يستطيعون أن يمسوه بسوء.. لأنه قاض؟

– كيرنوف؟. لا.. أنه لم يكن قاضياً في يوم ما..

– بل كان.. لقد جلس على منصة القضاء منذ مدة غير بعيدة كان يصدر خلالها الأحكام على مختلف الناس، ثم يعود إلى البيت جائعاً شرساً ويكوي صدري بالنار.. أنظر..

ثم كشفت عن نهديها المتهدلين كقطعتين من الجلد، وكانت عليهما آثار الكي وبعض الجروح التي لم تلتئم بعد، وقال إيليا بصوت أجوف وهو يشيح بوجهة من فرط التأثر:

– أغلقى الثوب. أرجوك..

وعادت هي تقول بصوت ينم عن الراحة لإنها تحب من تشكو إليه:

– كل جسمي بهذا الشكل إنه يعذبني بالكى وينزع الشعر بقوة..

– لماذا؟

– لأنه يشعر إنني لا أحبه..

– لعلك لم تكوني عذراء عندما ذهبت إليه!..

– كيف تقول هذا وأنت تعرف عني كل شئ. لقد عشته معك ومع ياكوف دون أن يمسنى بشر.. أما الآن.. فإنى أكره هذا.. أكره هذه العلاقة إلي حد الشعور بالغثيان.

– لن نتحدث عنها بعد الآن يا ماشا..

وخيم السكون على المكان.. وفجأة سمع إيليا نهنهة إنسان يبكي في صمت، فنهض إلي الباب المؤدي إلى المتجر حيث سمع جافريك يبكي بحرقة وهو يحاول كتم شهقاته، فقال له:

– كفى بكاء.. يا جافريك..

وقالت ماشا:

– أهذا غلامك؟ ماذا به؟

– إنه يبكي..

– لماذا؟ أهو خائف؟

– لا.. بل حزين من أجلك..

– يا له من طفل!...

وقال إيليا وهو يراها تشرب الشاي بهدوء:

– وماذا تنوين أن تفعلى؟!

فتنهدت قائلة:

– لا أدري.. ماذا ينبغي أن أفعل؟

– تقدمي بشكوي ضده..

– لقد كان يعامل زوجته الأولى هكذا. كان يشدها إلى السرير بشعرها ويكويها وفي ذات ليلة نهضت من النوم في فزع وألم ووجدته يمسك بعود ثقاب مشتعل ويلسع به بطني.

ووثب إيليا في غضب وراح يهتف قائلاً إن عليها أن تذهب إلى مركز الشرطة في اليوم التالى وتقدم شكواها للمسئولين طالبة القبض عليه بعد أن تكشف لهم عن الجراح في جسمها. ونظرت هي إليه في خوف ثم قالت:

– لا تصرخ هكذا يا إيليا.. إنني خائفة منك. وقد يسمعك أحد..

حسناً.. سوف أخرج الآن.. نامي في سريرى يا ماشا وسوف أنام في المتجر..

– شكرا على هذا الحديث.. إنني متعبة وأريد أن أنام..

وساعدها إيليا على الرقاد، ولفها بالبطانية في أحكام. ولا هم بمغادرة الغرفة، قالت له وهي تبتسم في شحوب:

– أرجوك إنني أخاف من النوم بمفردى، يخيل إلى أن هناك أشباحاً تطاردني.

ولم يسع إيليا إلا أن يجلس على مقعد بجوار النافذة.. وإستغرق في تفكير عميق.. وتذكر رجاء ياكوف وماتيتزا له برعاية ماشا ومحاولو إنقاذها.. وأحس بالعار لأنه إستغرق في شئونه الخاصة، تاركاً هذه الجارة الضعيفة تعانى بمفردها قسوة الحياة. وقرر أن يقف بجانبها حتى يقتص لها من زوجها القاسي، وغلبه النوم على أمره.. واكتنفته الأحلام المزعجة من كل جانب.. ورأى نفسه يسير في طريق مظلم وهو يسمع إستغاثة ماشا به.. وكلما سار في الطريق، إبتعد صوت الإستغاثة عنه حتي فقد أثره وفجأة سمع من يقول له وهو يهزه بعنف:

– إيليا.. إيليا.. إستيقظ..

الفصل الثالث عشر

فتح إيليا عينيه ليرى بافيل جراشوف جالساً على مقعد بجواره يركله بقدميه ليوقظه. وطرف إيليا بأجفانه أمام فيض الضوء المنساب من النافدة، بينما قال بافيل بصوت متحشرج ووجهه شاحب وشعر مشمث:

– إسمع يا إيليا..

ووثب إيليا واقفاً حين رأى منظر بافيل الرهيب وقال:

– ماذا حدث بحدث يا بافيل.. هل...!

فهز بافيل رأسه وقال:

– لا.. وإنما قبضوا عليها..

– عليها؟ على من؟ وأين هي؟

– في السجن..

– لماذا؟

واستيقظت ماشا بدورها، ونظرت في كسوف إلي بافيل الذي أجاب على سؤال إيليا بقوله:

– يقولون إنها سرقت حافظة نقود من تاجر غني.

وأضاف قائلاً:

– وضربت أحد رجال الشرطة على وجهه..

وأرسل إيليا ضحكة جافة وقال:

– طبعاً.. مادمت ستدخل السجن فأدخله وأنت جدير به!

ولما أدركت ماشا أن الحديث لا يدور حولها، إبتسمت وقالت:

– كم أتمنى لو أنهم وضعوني في السجن!

ونظر بافيل إليها، ثم إلى إيليا الذي قال له:

– ألا تتذكرها.. إنها ماشا إبنة برنشكا الإسكافي... هل نسيتها؟

فغمغم بافيل بكلمة عابرة ثم استدار إلى إيليا وقال بصوت كله التعاسة:

– كيف يكون الحال يا إيليا لو أن فيرا ارتكبت جريمة السرقة من أجلي؟

وقال إيليا في صوت ينم عن الضيق والحزن:

– كنت واثقاً من أن علاقتكما سوف تنتهي بهذه المأساة..

– لقد أبت أن تسمح لي..

– هل تعني أن ما حدث لها راجع إلى رفضها الإستماع لك؟ ماذا أردت أن تقول لها؟

– قلت لها إنني أحبها..

– وبماذا تستفيد من حبك لها بحق الشيطان؟

ثم أردف قائلاً وكأنما ينفس عن ضيقه وغضبه:

– ما ذنبها هي؟ أليس من حقها أن تأمل في حياة نظيفة مستقرة، إنها لا تنقص شيئاً عن غيرها.. وكل ما تناله منك هي عبارة "أنا أحبك".. فهل تعتقد أن كلمة الحب ستغنيها عن كل شيء آخر في الحياة؟

فقال بافيل في ذلة:

– وماذا كان بوسعي أن أفعل؟

وهدأ السؤال من غضب إيليا وجعله يصمت ويفكر. وأطل الغلام جافريك برأسه وقال:

– هل أفتح باب المحل؟

فصاح إيليا قائلاً:

– اللعنة عليك وعلى المحل.. هل أستطيع الآن أن أتعامل مع أحد؟

فقال بافيل وهو يطرق برأسه:

– إنني أعطلك..

– لا لست تعطلني.. ولا ماشا تعطلني، ولكن هناك شيئاً آخر خفياً يعطلنا جميعاً أنت وأنا وماشا.. شيئاً يفسد حياتنا جميعاً لعلي أثرثر بلغو

الكلام، ولكننى واثق تماما بأنه لا يوجد أمام أحدنا أية بارقة من أمل في أن نحيا حياة نظيفة مستقرة محترمة تليق بالآدميين. لقد سقمت من رؤية الأقدار حولي في كل مكان.. الجرائم والقسوة والجشع والتكالب، ومع ذلك فأنا نفسي..

وأمسك عن إتمام الحديث وقد شحب وجهه. وقال له بافيل:

- إنك دائماً تتحدث عن نفسك ..كل إنسان لا يكف الحديث عن آلامه ومتاعبه ويتأوه ويتوجع بصوته. إنني لا أتحدث عن نفسي، وإنما عن غيرى لأن الجميع يأتون إليّ ويضعون متاعبهم بين يدي.

ونهض بافيل متثاقلاً وهو يقول:

- إنني منصرف..

- أرجوك لا تعتبر حديثى إهانة لك.. إنني لست أقصدك.

- لا عليك يا إيليا.. إنني أشعر الآن كأنى مضروب على رأسى بهراوة ضخمة.. مسكينة فيرا.. ماذا يمكن أن تفعل من أجلها؟

فقال إيليا بصوت حاسم:

- لا شيء.. يمكنك أن تعتبرها مفقودة إلى الأبد.. لا مفر من أن يصدر الحكم بإدانتها، وإذا عاشت في السجن أكثر من شهر فقد إنتهت إلى الأبد.

وعاد بافيل إلى الجلوس وهو يقول:

– وماذا لو قلت إنها سرقت الحافظة لي.. أي إنني المحرض لها على السرقة؟

– ومن أنت؟ أمير؟ إنك لو فعلت هذا فسوف تسجن معها. حسناً.. عليك يا ماشا أن ترتبى الغرفة، وسوف أخرج أنا وبافيل للعمل في المتجر بعد أن ننظف أنفسنا.. ويحسن أن تعدي لنا بعض الشاى أيضاً.

ورفعت ماشا رأسها وقالت في خوف:

– هل يجب أن أعود إلى البيت؟

– البيت .. إن البيت هو المكان الذي يشعر فيه المرء بالأمن والراحة..

وقال بافيل بعد أن خرجا إلى المتجر:

– ماذا تريد منها.. إنها نصف ميتة؟

ولما سرد إيليا عليه مأساتها، إستشاط بافيل غضباً وثورة وقال:

– ذلك الشيطان العجوز، لو رأيته لخنقته بيدي..

وإبتسم إيليا.. ثم قال وهو يستدير بنظراته في أرجاء المحل:

– قلت لي يا بافيل يوماً إنني لن أجد السعادة في عملي هذا. صدقت، لقد بدأت أشعر بتفاهة هذا العمل.. أى جدوى من وقوفي هنا طول النهار لا أبيع وأشتري.. لقد فقدت حريتي.. لم يعد في مقدورى أن

أخرج وأتجول وأرى الدنيا وأجلس في ظل شجرة على ضفة جدول.. إنني سجين هنا.. ليلا ونهارا.

فقال بافيل:

– كان يمكن لفيرا أن تكون مساعدة بارعة لك..

وأرسل إيليا إليه نظرة سريعة ولم يقل شيئاً.

وقالت ماشا:

– تعالوا واشربوا الشاى.

وجلس الثلاثة حول إبريق الشاي.. وكانت الشمس في الخارج ساطعة، والحياة تنبض في الطريق.. وقال إيليا:

– إننا نجلس وكأننا عدنا من تشييع جنازة.

وقال بافيل:

– إنها جنازة فيرا.. ترى هل أنا المذنب في حقها؟

وقال إيليا:

– ربما..

– يا لك من إنسان متحجر القلب..

– وهل وجدت في الحياة ما يلين قلبي؟ هل أحسست يوماً بيد حانية تمسح على رأسي. حقاً لقد وجدت الحب الصادق في حياتي مرة واحدة.. ولكنه حب إمرأة يغني!

ثم وثب مهتاجاً ثائراً يريد أن يدمر أي شئ. وولولت ماشا قائلة:

– دعوني أنصرف إلى البيت.. إنني خائفة.

وقال إيليا:

– لماذا تبكين؟ إن ثورتنا ليست عليك.. ثم إلى أين تذهبين؟ أنا الذي سأذهب، سوف يبقى يبقى بافيل هنا.. وإذا جاءت تانيانا يا جافريك فقل لها: أه... من القادم؟

وكان ثمة شخص ما يطرق على الباب الخلفي المؤدي إلى الفناء وقال إيليا لجافريك حين رآه ينظر إليه متسائلاً:

– إفتح الباب يا جافريك..

ووقفت سونيا –أخت جافريك– بالباب المفتوح، وراحت تتأمل المجتمعين بنظرات مدهوشة أولاً، ثم مليئة بالاحتقار ثانياً.. وتجاهلت إنحناءة إيليا لها وقالت لأخيها جافريك بحدة:

– تعال هنا يا جافريك.. أريد أن أقول لك شيئاً..

وأحس إيليا بالدماء تثور في رأسه إزاء هذه الأمانة، ولم يسعه إلا أن يقول بصوت مترفع:

– عندما ينحني أحد إليك بالتحية يجب أن تردي عليها..

فرفعت رأسها عالياً، وألقت نظرة سريعة إلى وجه إيليا وزمت شفتيها. وكذلك نظر جافريك إلى سيده غاضباً واستطرد إيليا يقول:

– إنك لست أمام قتلة أو لصوص أو سكارى.. وإنما أمام أناس محترمين. وأنا أمامك دائماً باحترام، وينبغي أن تعامليني بالمثل لأنك آنسة متعلمة مهذبة.

وتكهرب الجو.. وتوقع الجميع أن تنفجر سونيا غاضبة. وأسرع جافريك يقول ليهدىء من توتر أعصابها:

– ردى عليه يا سونيا برفق.. لا تنخدعي بحديثه إنه غريب الأطوار..

وقالت سونيا في تحد:

– ماذا تريد مني؟

– لا شيء.. فقط..

وفجأة قال في تواضع وبرفق وهو يتقدم نحوها:

– كوني شفوقا بنا.. ألا ترين أننا ثلاثة ضعاف جاهلين بؤساء.. وأنت شابة محترمة مثقفة.

وازدحمت الألفاظ في فمه وهو ملهوف ليقول لها كل شيء. وأخيراً قال:

– أرجو أن تسمحي بالجلوس برهة لأشرح لك كل شيء..

وجلست سونيا بجوار موقد الشاي. وإنصرف بافيل إلى المتجر. وانكمشت ماشا في ركن الغرفة. واتخذ جافريك مكانه بجوار أخته:

وقالت سونيا:

– حسناً.. إنني منصتة إليك..

وسرد عليها كل شيء.. ولانت ملامحها، وبدأ الإشفاق مرسوما على وجهها بوضوح، ولما فرغ من حديثه قالت وهي تنظر إلى ماشا بعطف شديد:

– يجب أولاً أن نعرضها على طبيب ليفحصها ويكتب تقريراً رسمياً عن حالتها.. وأنا أعرف طبيباً محترماً.. هل تحب أن أصحبها إليه. إن عيادته مفتوحة الآن.. لسوف نذهب إليه في مركبة.. والآن إستدع صاحبك لتقدمه إلي.

ولكن إيليا لم يتحرك من مكانه.. لقد جلس مدهوشاً مما رآه على وجه سونيا.. لقد رأى ذلك الوجه الجامد المترفع يتحول فجأة إلى وجه إنسانة كلها العطف والحنان والإشفاق. وقد استدارت إلى ماشا وقالت:

– لا تبكي يا عزيزتي.. إن الطبيب رجل طيب، ولن يؤذيك. إنه سيقدم لك شهادة بأن زوجك يعاملك بقسوة ومن حقك الطلاق منه.. ولسوف أعود بك إلى هنا بمجرد أن تحصلي على هذه الشهادة.

وأقبل بافيل في تلك اللحظة، فقدمه إيليا إلى سونيا التي مدت يدها تصافحه وتقول وهي تفحص وجهه:

– إن إسمى سونيا بيدجديا.

ثم التفتت إلى إيليا وأردفت:

– وأنت، كما أظن.. إيليا لنييف؟

وأمسك إيليا بيدها في لهفة وقال مهتاجاً:

– نعم.. وما دمت إنسانة كريمة إلى هذا الحد، فأرجو أن تساعدي بافيل وفيرا أيضاً..

وظل ممسكاً بيدها –رغم محاولاتها لتسحبها منه برفق– وهو يقص عليها مأساة بافيل وفيرا.. وقال في النهاية:

– إنه ينظم الشعر أحياناً.. وياله من شعر ولكنه صامت الآن.. وكذلك هي.. أحرقتهما قسوة الحياة، ولعلك تظنين أن ما حدث يرجع إلى أنها.. أنها، ولكن لا.. ليس هناك إنسان شرير كله أو خير كله..

فقالت سونيا متسائلة:

– ماذا؟

– أعني أن الإنسان الشرير لابد أن تكون له بعض الصفات الطيبة. وكذلك الإنسان الطيب لابد أن تكون له بعض الصفات السيئة..

فأومأت الفتاة برأسها وقالت:

– هذا صحيح.. وأرجوك أن تترك يدي، فإنك تؤلمني..

واعتذر إيليا . واستدارت سونيا لتقول لبافيل:

– من العار أن تقف مكتوف اليدين.. يجب أن تتخذ الإجراءات اللازمة لإنقاذها،أعهد بقضيتها إلى محام. وسوف أساعدك في البحث عن المحامي البارع. وتأكد أنهم سيطلقون سراحها.. نعم.. هذا مؤكد..

وشعر إيليا بالزهو لوجود هذه الفتاة في غرفته.. وراح ينظر حيناً إلى ماشا وحيناً إلى بافيل الذي قال لسونيا:

– أرجوك أن تساعدينا إذا كان هذا ممكناً..

– هل يمكنك أن تحضر إلى بيتنا في السابعة مساء. إن جافريك يمكنه أن يرشدك إليه..

– إنني لا أدري كيف أشكرك؟

– لا داعي للشكر.. المفروض أن يساعد الناس بعضهم البعض.

وهنا قال إيليا متهكماً:

– وكيف يمكنهم هذا؟

واستدارت إليه بسرعة ونظرت إلى وجهه في تساؤل غاضب ولكن الغلام جافريك أسرع وتناول يدها وقال:

– لقد حان موعد إنصرافك..

– نعم.. إرتدي ملابسك يا ماشا..

– ليس لدي ما أرتديه..

– حسناً.. هذا لا يهم.. هلم إلى الطبيب ولا تنسى الحضور في الموعد يا بافيل جراشوف.. وأنت يا إيليا لنبيف.. طاب صباحك.

وصافحته ثم سارت نحو الباب. وفجأة توقفت واستدارت وقالت لإيليا:

– نسيت أن أقول لك أنني آسفة على تصرفي معك، كان ينبغي أن أرد عليك التحية بمثلها.. أكرر أسفي واعتذاري..

وأشرق وجهها بإبتسامة بدت لإيليا كأنها ضوء الشمس حين يطرد الغيوم من صفحة السماء. ووقف الصديقان يتبادلان النظرات، وأخيراً قال إيليا وهو يلكز صاحبه:

– فتاة نظيفة!

وضحك بافيل وقال:

– إنها مناسبة لك يا إيليا؟

– ما رأيك فيها؟

– إنها تكتسح كل شيء أمامها كالريح..

– هذا سر الحياة النظيفة والتعليم يا بافيل.. إن مأساتنا هي الجهل..

وقال بافيل:

– حقاً إنها سيدة لطيفة ومهذبة وناصعة كالنجم المتألق..

– وهي لا تخطيء كثيراً في معرفة حقيقة الأوضاع..

ولما عاد جافريك من توديعه لأخته قال له إيليا:

– إن لك أختاً رائعة يا جافريك.

– نعم.. وأنا فخور بها.. هل سنفتح المحل اليوم أم نجعله أجازة؟ لشد ما أنا في حاجة إلى نزهة خلوية في المزارع..

فقال إيليا:

– حسناً.. ليكن يومنا هذا عطلة.. لي ولك..

وقال بافيل الذي شعر مرة أخرى بالأسى:

– لسوف أمضي إلى مركز الشرطة.. ربما يسمحون لي برؤيتها..

– أرجو هذا.. أما أنا فسوف أستريح من العمل اليوم.

وإنصرف بافيل إلى مركز الشرطة.. ومضى الغلام جافريك إلى نزهته..

وسار إيليا في الطريق وهو يشعر بالحياة تنبض حوله.. بعض الطلبة يسيرون ضاحكين. عربة محملة بالخضروات.. شحات يسير معتمدًا على عكازين.. سجينان يقودهما شرطي مسلح.. كلب صغير يهرب بقطمة عظم.. أناس يروحون ويجيئون.. ضجيج وعجيج ودقدقة أقدام وصياح وحديث.. كل هذا في إمتزاج يكون نبض الحياة..وإقتربت منه فتاة جميلة متوردة الوجنتين متألقة العينين، وإبتسمت وقالت وهي تمر بجانبه:

– ما أجملك!

وإبتسم لها إيليا ولم يحاول أن يستجيب لرغبتها..وسار في طريقه حتى إقترب من سور المدافن.. وقرر أن يسير بحذائه ليحتمي به من حرارة الشمس.. وكان ثمة أشجار ظليلة باسقة الغصون ترتفع وراء السور وترسل ظلالها على جانب الطريق. ولما وصل إيليا إلى بوابة المدافن، إستطاب الهواء الرطب المنساب منها، فدخلها، وراح يسير في الممرات الظليلة، ويتأمل الصلبان الغضية والمذهبة الموضوعة على المقابر الرخامية، ويستنشق عبير الزهور المتفتحة حول الأشجار.. ويحس بالراحة الكاملة في ذلك الجو الرطيب الهادئ البعيد عن ضجيج الحياة وقسوتها..وظل في سيره مستمتعًا بالشذى والظل والسكينة، وراح يتسلى بقراءة الأسماء

المحفورة على شواهد القبور.. وفجأة شعر كأن سكينًا أغمدت في صدره حين قرأ على شاهد قبر هذه العبارة:

"هنا يرقد جثمان فازيلي جافريلوفتش بولكتوف، التاجر".

وأغمض إيليا عينيه وأحس كأنه إنتقل فجأة من عالم كله سلام وسكينة إلى جحيم له عذاب وقسوة..وترنح في وقفته، وأسرع يعتمد بجسمه إلى شجرة بجوار القبر.. وهاجمته ذكريات الجريمة بعنف وكأنها وقعت منذ لحظات.. وتذكر وجه الرجل في لحظة الاحتضار وشعر كأن قطرات لعابه التي سقطت على يديه لا تزال تحرقه.. ولم يسعه إلا أن يفتح عينيه ويقول بهمس كالفحيح وكأنه بوجه الحديث إلى إنسان حي:

– لقد أفسدت علي حياتي كلها.. عليك اللعنة.. هل تسمع.. كيف سأعيش حياتي بعد الآن.. لسوف أحمل وزر الجريمة حتى آخر لحظة من العمر.

وأراد أن يصرخ عاليًا.. وبذل جهده ليكبح جماح هذه الرغبة المسعورة، وراح يرى بين الخيال شريطًا من الوجوه التي أفسدت. حياته.. عمه.. بتروشكا. برنشكا.. تانيانا. كيريك الأحمق.. هذا اللعين بولكتوف.. إن ثمة زئيرًا يملأ أذنيه، وإنه ليشعر أن هؤلاء الناس يتجمعون لينقضوا عليه. واستبد به الفزع.. وسقطت قبعته من يده.. فلما إنحنى ليستردها، رأى مرة أخرى تلك العبارة.. وتذكر التاجر.. وتذكر المرابي الذي كان يمتص دمام الناس.. تذكر العجوز المخرف الذي كان يرتشف دماء الحسناء

الشابة أولمبيادا ليلة بعد ليلة.. وأحس بفيض من الغضب يملأ صدره.. وتمنى لو إستطاع أن يحطم التابوت الرخامي ليبصق على وجه القتيل.. ولكن هذا مستحيل..ورفع قامته وبصق على القبر، وشعر برعدة من الحقد تملأ صدره. وأخيرًا إستدار وغادر المكان وهو يدرك أنه لم يشعر بعد اليوم بطيب الحياة مهما بلغ من الثراء والاستقرار.

الفصل الرابع عشر

لم يشأ إيليا أن يعود إلى مسكنه.. شعر أنه في حاجة إلى إنسان يتحدث معه وأخذ يستعرض الأشخاص الذين يمكن أن يستريح معهم بالحديث.. إن سونيا لم تدعه إلى بيتها كما دعت بافيل.. وبافيل مشغول بمأساته مع فيرا.. وعمه ترنتي لا يزال في كييف يلتمس الغفران، والغلام جافريك أصغر من أن يتبادل معه الحديث الجاد.. ولم يبق أمامه إلا صديق الصبا ياكوف..وفي غرفة ياكوف بالمنزل اللعين.. منزل بتروشكا... جلس الصديقان يشربان الشاي ويتحدثان.. وقال ياكوف مغيرًا مجرى الحديث إلى الموضوع الذي يؤثره على غيره.. موضوع الكتب التي قرأها:

أتعرف يا إيليا إنني أقرأ الآن كتابًا ممتعًا جدًا اسمه "جوليا" أو "قلعة ماتزيني السرية" هل تقرأ كثيرًا هذه الأيام؟

– إن الحياة كلها قلاع سرية رهيبة لا يعرف الإنسان طريقه فيها..

فنظر ياكوف إليه في عطف وقال:

– هل حدث لك شيء مزعج يا إيليا؟

وأراد ايليا أن يسرد عليه مأساة ماشا، ولكن ياكوف أردف قائلاً:

– إنك دائمًا هكذا.. ضيق الصدر كأنك تحمل عبئًا ثقيلًا على كتفيك لا تستطيع الخلاص منه.. إن الحياة لا تحتمل هذا كله.. ونحن فيها غير ملومين على شيء.. إننا مخلوقات مسيرة بقدر لا حيلة لنا معه..

وراح إيليا يشرب الشاي دون أن يرد..وعاد ياكوف يقول:

– يقولون أن كل إنسان ينال ما يستحق.. وهذه هي الحقيقة.. أنظر إلى أبي؟ إنه رجل قاس متحجر القلب لا يرحم.. وفجأة يسوق إليه القدر زوجة أقسى منه وأقوى وأعنف. إنها الآن تذيقه من نفس الكأس التي طالما أذاقها للغير.. لقد بدأ يدمن الخمر لينسى عذابه معها.. وهكذا الأمر.. كل إنسان من نوع أبي زوجة مثلها في إنتظاره لتعاقبه على آثامه.

وشعر إيليا بالسأم من هذا الحديث، فدفع بقدح الشاي بعيدًا عنه وقال بصوت أدهشه:

– حسنًا وماذا تنتظر أنت؟

ففتح ياكوف عينيه عجبًا وقال:

– ماذا تعني؟

– أعني ماذا تنتظر في المستقبل.. ماذا تنوي أن تفعل؟!

وأطرق ياكوف برأسه وإستغرق في خضم من الأفكار.. ولما أعاد إيليا عليه السؤال، رفع رأسه وقال:

– أي مستقبل ينتظرني؟ لا شيء.. إنني سأموت قريبًا جدًا، وهذا كل شيء..

ثم أشرق وجهه بإبتسامة سعيدة وأردف قائلًا:

– إن أحلامي كلها الآن زرقاء اللون.. أرى اللون الأزرق في كل أحلامي.. أراه في السماء وفي الأرض.. في الأزهار والأشجار والعشب.. في كل شيء والسكون حولي منتشر وأنا أسير.. أسير إلى ما لا نهاية وبلا أي شعور بالتعب.. والأحلام الزرقاء معناها النهاية القريبة..

فنهض إيليا وقال في ضيق:

– حسنًا.. سوف أنصرف الآن.

– لماذا تتعجل.. إبق برهة أخرى، كيف حال ماشا... سمعت أنها تقاسي في حياتها..

– نعم..

– مثلي.. ومثلك.. يبدو أنك غير سعيد في حياتك يا إيليا!

ولم يرد إيليا عليه وإنما قال:

– طاب يومك يا ياكوف.. أرجو أن تغفر لي إذًا..

– إن الله وحده هو الذي يغفر لنا..

وانصرف إيليا دون أن يقول شيئًا..

* * *

وأصبحت سونيا أخت جافريك تأتي إلى المتجر كل يوم تقريبًا. وكانت تأتي بسرعة وتنصرف بسرعة بعد أن تتبادل معهما حديثا قصيرًا.. وفي ذات يوم قالت لإيليا:

– هل تحب عملك؟

– لا أستطيع أن أقول إنني أحبه، ولكن على الإنسان أن يكسب قوت يومه..

فأرسلت إليه نظرات فاحصة كأنها تقتحم بها أغوار نفسه وقالت:

– ألم تحاول أن تكسب قوت يومك من عمل آخر؟

– ماذا تعنين؟

– أعني ألم تحاول أن تعمل وتتعب وتعرق؟

فرد عليها في دهشة وإرتباك:

– إن حياتي كلها عمل وتعب.. إنني هنا أعمل من الصباح إلى المساء كما ترين.

– هل تظن أن بيع الأشياء يعتبر عملًا شريفًا؟ ألا ترى الفرق بينه، وبين الأعمال الأخرى؟

– أي فرق تعنين؟!

– أعني الفرق بين الشخص الذي يصنع الأشياء بقوته ومجهوده وبين الآخر الذي يأخذ هذه الأشياء ليبيعها ويربح منها. هل تعتقد أن التجارة عمل يحتاج إلى مجهود كبير؟

– أعترف أن التجارة عمل سهل جدًا إذا عرف الإنسان أسرارها.. وكل إنسان يستطيع أن يعرف هذه الأسرار بالتجربة والمران، ولكنها ضرورية للناس،ولا غنى عنها.

فهزت كتفيها وانصرفت مسرعة. وأدرك إيليا أنها إنصرفت غاضبة وإن كان لا يدري لماذا؟ ومما ضاعف من حيرته لتصرفاتها، إن بافيل كان يحدثه بحماس عن طيبة قلبها، وعن جمال الحياة في مسكنها، وعن نظافة كل شيء في حياتها..

– كلما ذهبت لزيارتها يا إيليا استقبلتني بترحيب، ودعتني لمشاركة الأسرة في تناول العشاء أو شرب الشاي. وإن ضيوف الأسرة كثيرون.. وهم يغنون ويضحكون ويتحدثون عن الكتب ويتنافشون في الثقافة والأدب.. آه.. إن مسكنها يكاد يزدحم بالكتب التي لا حصر لها.. والمسكن ليس كبيرًا، وكلنا نتزاحم فيه، ولكننا نضحك دائمًا. والضيوف جميعًا من المثقفين.. منهم المحامي والطبيب والصحفي والكاتب والطالب الجامعي ولكن الإنسان لا يشعر معهم أنه أقل شأنًا منهم.. هذا أجمل ما في الأمر كله.

وقال إيليا باكتئاب:

– لا أعتقد انها سوف تدعوني يومًا إلى بيتها.. إنها شديدة الكبرياء..

فهتف بافيل قائلًا في إحتجاج:

– هي.. إنها البساطة المجسمة. ولماذا تنتظر دعوتها؟ إذهب بنفسك وسوف ترى كيف ترحب بك؟ إن بيتها مثل النادي النظيف المحترم.. كل من يدخله يلقى فيه الترحيب والاحترام، أنظر إلي! إنني لا أقارن بهم. ومع ذلك أشعر كأني واحد منهم رغم زياراتي للبيت مرتين فقط.. إنهم أناس لطاف مهذبون.

– وكيف حال ماشا؟

– إنها تتحسن كثيرًا.. وهم يهتمون بأمرها كل الاهتمام. وأصبحت الإبتسامة لا تفارق وجهها الآن ويؤكد المحامي أن العدالة سوف تأخذ بتلابيب زوجها اللعين.. سوف يدفع ثمن قسوته عليها غاليًا.. نعم... سوف تنال حريتها مع تعويض ضخم ربما يصل إلى نصف ثروته.. وكذلك فيرا.. إنهم سيهتمون بقضيتها ويتعجلون تقديمها للمحاكمة وأعتقد أنها ستظفر بالبراءة.

– وهي.. ماذا عنها؟

– إنها سيدة الجميع.. تدير كل شيء في البيت.. والويل لمن يقول عبارة غير لائقة.. إنها تتحول إلى نمرة متوحشة.

فضحك إيليا وقال:

– أتقول لي هذا؟ إنني أعرفه جيدًا..

وشعر بالحسد لبافيل، وتمنى من صميم قلبه لو إستطاع أن يزور سونيا في بيتها.. ولكن كبرياءه يمنعه.. وتعجب من أمرها.. إنها أول إنسانة يراها لا تحاول أن تأخذ من الناس دون أن تعطي شيئًا بل إنها تحاول أن تعطي كل ما لديها دون أن تطمع في شيء. فها هي ذي تبذل جهدها لمساعدة بافيل وفيرا وماشا وهي تعلم تمامًا أنهم فقراء، إنهم عاجزون عن أن يردوا لها الجميل..

ولكن لماذا تكره الذين يشتغلون بالتجارة؟! وسألها ذات يوم قائلاً وهو يركز نظراته على وجهها:

– هل أفهم من تصرفاتك وأحاديثك أنك لا تحبين الذين يشتغلون بالتجارة؟

– نعم.. لا أحبهم..

– لماذا؟

– لأنهم يعيشون على حساب الغير.

فقطب إيليا جبينه وقال في إحتجاج:

– ليست هذه هي الحقيقة..

فردت قائلة ببرود وهي تشير إلى لفة شريط:

– بكم اشتريت لفة الشريط هذه؟

– بسبعة عشر كوبك.

– وبكم تبيعها؟

– بعشرين...

– أترى أنك تكسب ثلاثة كوبكات بينما صانع الشريط أحق بها. هل فهمت؟

– لا..

فبرقت عيناها بالغضب والإستنكار وقالت:

– إذن فلن يفهم أحدنا الآخر يومًا.. إن التاجر يقف بين الصانع والعميل ويرفع السعر دون أن يضيف شيئًا الي قيمتها الحقيقية.. إن التجارة سرقة.

فهتف قائلًا في احتجاج:

– لا.. ليست التجارة سرقة.. إنني لا أتفق معك في هذا.

وهزت كتفيها واغتصبت إبتسامة شاحبة وقالت وهي تنصرف:

– هذا هو رأيي.. لن نتفق أبدًا.. وفيما هي تنصرف صاح قائلاً في غضب:

– إن التجارة عمل شريف رغم كل ما تقولين!

وبعد إنصرافها، تهالك جالسًا وراح يفكر فيها بإستياء وحزن.. ماذا فعل معها حتى تعامله بهذه القسوة.. إنها تأتي وتوجعه بالكلام ثم تتصرف على هذا النحو.حسنًا.. لسوف يعرف كيف يعاملها إذا كررت هذه المحاولة معه.

* * *

وجاء في اليوم التالي.. واستعد لنزالها، ومن ثم رد على تحيتها ببرود، ولكنه فوجئ بها تبتسم في رفق وتقول له:

– ماذا بك.. إنك تبدو شاحب الوجه؟

– إنني بخير..

– أرجو ألا تكون مستاء من أحاديثي معك..

– لقد اعتدت على إساءة الناس لي..

– إنني لم أقصد الإساءة إليك..

فهز كتفيه وقال ببرود:

– ليس من السهل أن تسيئي إلي.. إنك طيبة القلب،والطيور التي مثلك لا تطير عاليًا..

وشدت سونيا قامتها، ونظرت إليه في تحد، ولكنه لم يبال بأمرها وإنما إستطرد يقول ليفرغ ذات نفسه:

– من السهل جدًا أن يتظاهر إنسان بمظهره المتكبر المترفع إنه لا يكلف أحدًا أي شيء. ولست أدري من أين لك كل هذه الكبرياء؟ وأنت من رقة الحال بحيث تعجزين عن شراء ثوب جديد كل عام.

فردت قائلة في صوت خافت:

– كن على حذر في أقوالك..

وإبتهج إيليا حين رأى إحمرار وجهها وإختلاج طرفي أنفها، واستطرد يقول بلا مبالاة:

– إنني أعبر عن رأيي. إن تظاهرك بالكبرياء شيء رخيص يستطيع كل إنسان أن يفعله دون أن يكلفه شيئًا..

وصاحت سونيا غاضبة:

– إنني لا أتظاهر بغير حقيقتي..

وأسرع الغلام جافريك وأمسك بيدها وقال:

– هلم نخرج من هنا يا سونيا.. لم يعد لنا مكان في هذا المحل اللعين.

فرماهما إيليا بنظرة باردة وقال بصوت يقطر بالحقد:

– أخرجا.. لم أعد في حاجة إليكما، وليس بكما حاجة إلي.

ونظر الإثنان إليه في دهشة، ثم أسرعا بالإنصراف وهو يشيعهما بضحكة ساخرة.. وأمضى يومه وهو يتمنى أن تحضر تانيانا لكي يطردها

من المتجر كما فعل بسونيا وجافريك.. كان يشعر بالرغبة في القسوة على كل مخلوق، حتى على عملائه.. ولشد ما تمنى لو أنه استطاع أن يطردهم جميعًا.. الواحد بعد الآخر فلا يعودون إليه.. وعند ظهيرة اليوم التالي، أقبل بافيل متجهم الوجه، وقال دون أن يلقي بالتحية:

– لماذا عاملت سونيا بهذه القسوة والترفع؟

وهز إيليا كتفيه ولم يجب. واستطرد بافيل قائلًا بنفس اللهجة الغاضبة:

– بأي حق تعاملها بمثل هذه الخشونة يا إيليا لينييف؟!

فنظر إيليا في إستهانة وقال ببرود:

– كان من الواجب أن تلقي بالتحية قبل أن تبدأ الحديث

فأربد وجه بافيل وقال بغضب متزايد:

– هل أصبحت ثريا الآن يا إيليا لنييف؟ هل امتلأت بطنك وغدوت تحتقر الفقراء وتطردهم من متجرك؟ أنسيت قولك ذات يوم أنك لم تر في حياتك إنسانًا يساعدك.. ولما أصبحت قادرًا على مساعدة الناس رحت تطردهم؟!

فقال إيليا دون أن يفقد زمام أعصابه:

– لا تحاول أن تعلمني ماذا ينبغي أن أفعل؟ إنني أفعل ما أحب، وأعيش كما أريد. لقد سئمت النظر إلى وجوهكم جميعًا.. وإذا كنت

غاضبًا من أجلها وأجل أصحابها، فإذهب وعش معهم ولا تريني وجهك بعد اليوم..

وصاح بافيل مستنكرًا:

– إنني ذاهب للحياة معهم فعلًا.. إن بيتهم هو المكان الوحيد النظيف الذي تطيب فيه الحياة.

– حسنًا.. إذهب ولا تصرخ هكذا.. دعني وشأني.

وخرج بافيل مسرعًا..وشعر إيليا بعد خروجه بأن كل شيء في داخله قد مات. وخيل إليه أن كل حركة وخلجة وفكرة قد توقفت.. لم يعد هناك تفكير في شيء.. لم تعد هناك رغبة في شيء.. بل لم يعد هناك شيء غير إحساس رهيب بالوهن والضعف والإعياء والملل.. وبمثل هذا الإحساس أمضى نهاره.. وليلته.. ليلته المزدحمة بالأحلام المزعجة ومرت أيام أخرى وليال كثيرة.. وأقبل العملاء وإنصرفوا.. في كل لحظة.. وفي كل ساعة. كل منهم يأتي ليشتري حاجته وينصرف.. وكان يشيعهم بنظرات غاضبة.. إنهم في غير حاجة إليه.. ولا هو بحاجة إليهم.. إنه منعزل عن الجميع.. لقد أصبح يعيش بين الناس وحيدًا.. بلا رغبات، ولا أهداف، ولا آمال.

الفصل الخامس عشر

كان إيليا جالسًا في متجره وكان عمه الأحدب ترنتي جالسًا على مقعد جافريك بالقرب من الباب، ينظر إلى الشارع ببلاهة. وكان قد عاد في الليلة السابقة فجأة من رحلته إلى كييف. فاستبقاه إيليا ليقوم بالأعمال التي كان يقوم بها جافريك. وأقبلته تانيانا لازينا ودخلت المتجر، ثم توقفت ونظرت إلى الأحدب ترنتى ولوت شفتيها وقالت:

– أهذا عمك الذي طالما حدثتني عنه؟!

– نعم..

– هل سيقيم معك؟

– بكل تأكيد..

وكان رنين التحدي في صوته سببًا لأن تمتنع عن الاستطراد في الحديث. وكان ترنتي يحملق في بلاهة إلى تلك الفتاة الحسناء المتوثبة كالطائر، ثم ارتسمت علامات الدهشة على وجهه حين رآها تقلب صفحات دفتر الحسابات، وتتحدث في نفس الوقت قائلة:

– كانت رحلة جميلة في قلب الريف.. لم تكلفني إلا قليلًا، ولكنها أفادتني صحيًا إلى حد كبير.. وما أجمل النهر هناك.. رائق المياه، عذب المذاق، ظليلًا رطيبًا، وما أجمل صحبة الناس لقد كان أحدهم – وهو

موظف بإدارة البرقيات – يعزف لنا على الكمان كل ليلة. وتعلمت التجديف أيضًا، ولكن الأطفال كانوا في كثرة الذباب وسخافته.. لا يكفون عن طلب الإحسان والإستجداء، لا شك أن آباءهم يدربونهم على التسول.

فقال إيليا بجفاء:

– لا.. إنك مخطئة في هذا الظن. إن آبائهم وأمهاتهم يعملون طيلة النهار، ولهذا لا يوجد من يعنى بأمر هؤلاء الأطفال..

فضحكت تانيانا وألقت دفتر الحسابات وقالت:

– هل أنت غاضب؟ لماذا؟

وشعر ترنتي أن الجو سيتعكر، فنهض وغادر المتجر إلى الشارع. أما إيليا فقد استدار وأمسك بكتفي تاتيانا وقد شعر بمزيج من الكراهية لها مع الرغبة الجامحة في احتضانها وتحطيم ضلوعها والاستمتاع بسماع هذه الضلوع وهي تتحطم بقوة عناقه. وجذبها إليه وهو يكشر عن أسنانه، ولكنها أمسكت بذراعيه وقالت محذرة:

– هل جننت.. دعني.. لا يليق هذا في المتجر.. إسمع.. لا يمكنك أن تدع عمك يقيم معك.. إنه أحدب والناس سينفرون منه.... يجب أن تبحث له عن مكان آخر..

كان قد ضمها إلى صدره وراح ينحني بوجهه عليها.. ولكنها قاومته قائلة:

– لا.. ليس هنا.. هل جننت؟ قد يدخل أي عميل في أية لحظة..

وفجأة، وبمرونة السمكة، إنفلتت من بين يديه، ووثبت إلى باب المتجر تلهث، ثم قالت وهي تسوي صدارها:

– ما أخشنك وأغلظ عناقك.. ألم يكن في مقدورك الانتظار؟

وراح إيليا يحملق فيها بأنفاس لاهثة.. وكان في تلك اللحظة يرى أنها التجسيد الرهيب كل مالقيه في الحياة من شرور وأثام..وقالت له هامسة:

– إن لهيب العاطفة شيء جميل، ولكن الأجمل قدرة الإنسان على ضبط مشاعره.

– أخرجي من هنا..

– إنني خارجة، ولكنني لن أستطيع أن أراك اليوم.. ولا تنس أن بعد غد هو اليوم الثالث والعشرون.. عيد ميلادي.. هل ستأتي؟

وراحت تعبث بقلادتها دون أن تنظر إليه. أما هو فقد هتف قائلاً بحدة:

– أخرجي من هنا..

وإنصرفت بسرعة. وفي اللحظة التالية أقبل ترنتي قائلاً:

– أتلك شريكتك؟

فلما أومأ إيليا برأسه، قال الأحدب:

– أترى.. إنها صغيرة ومع ذلك..

– ناعمة كالحية الرقطاء..

والتزم ترنتي الصمت حين رأى الغضب مرتسمًا على وجه إيليا. وفيما كان إيليا ينظر إلى الجو المكفهر خارج المتجر، شعر بالرعدة وقال لنفسه.. يجب أن أتخلى عن كل شيء.. عن المتجر وغيره.. ويستطيع عمي ترنتى أن يديره لحسابها.. أما أنا.. فيجب أن أنطلق في الدنيا الواسعة. وبعين خياله راح يتصور الحقول الممتدة الخضراء، والسماء الواسعة الصافية المرصعة بالسحب البيضاء، والطريق العريض المحفوف بالشجر، وهو سائر فيه، وقدماه تغوصان في الطين.. ووجهه منتعش بالمطر، والمكان خال من كل شيء، حتى من البلابل على الشجر.. ولكنها السحب فقط هي التي تتحرك في السماء بلا صوت..إذا لم يتحقق لي هذا، فسوف أقتل نفسي..

هكذا انتهى به التفكير..وبعد يومين إستيقظ ليرى على وجه التقويم السنوي أن اليوم هو الثالث والعشرون من الشهر.. وتذكر أنه اليوم المحدد لمحاكمة فيرا ومن ثم نهض مسرعًا، واغتسل وشرب الشاي وارتدى ملابسه. واندفع نحو المحكمة، فلمح ظهر بافيل، فابتهج وأمسك بطرف كمه، وإبتسم له إبتسامة عريضة، ورد بافيل عليها بمثلها، ولكن بلا إبتهاج.

ومرت لحظات وكل منهما ينظر في وجه الآخر.. وأخيرًا قال بافيل بإبتسامة شاحبة:

– هل هي هنا؟

– صاحبتك سونيا..

– إنها ليست صاحبة أحد..

وأسرع بافيل مبتعدًا. ولم يلبث إيليا أن رآه يجلس في الصف الثالث بجوار سونيا التي إلتفتت إليه – إلى إيليا – وأرسلت إليه نظرة مشحونة بالغضب والاحتقار..وامتلأ قلب بافيل بالغيظ والحنق وهو يرى إيليا وقد صلح حاله، وتحسنت صحته في الأسابيع القليلة السابقة، وبدا في ملابسه الجديدة النظيفة إنسانًا آخر. ومشيت فيرا إلى قفص الإتهام حيث وقفت وراء القضبان بملابس السجن الرمادية، ومنديل أبيض على رأسها. ورآها إيليا جانبيًا.. ولمح خصلة من شعرها الذهبي على جبينها، وكان وجهها شاحبًا. وشفتاها مزمومتين. ونظراتها مركزة على القاضي جروموف. وأخذت كلماتها ترن في أذنيه بغموض:

– نعم.. نعم.. لا.. نعم...

وكان القاضي جروموف ينظر إليها بعطف ويقول لها بصوت دقيق:

– فيرا كابيتانوفا.. هل تعترفين بأنك في الليلة..

وخيل إلى إيليا أن صوته كان يأتي خافتًا إلى أذني فيرا.. ونظر إلى بافيل.. فرآه منحنيًا على نفسه، مطرق الرأس، بينما جلست سونيا بجواره منتصبة القامة، مرفوعة الرأسي، ينم وجهها على أنها تصدر في نفسها جميع مختلف الأحكام على الغير.. على فيرا والقضاة والمحلفين.. والنظارة وكانت لا تكف عن التلفت حولها وقد زمت شفتيها وتألقت عيناها بنظرات باردة مشحونة بالترفع والكبرياء. وكانت فيرا تقول بصوت له رنين الخزف حين يقرع بالملعقة:

– إنني أعترف.

واقتربت رأسا إثنين من المحلفين، دودنوف وجاره، وراحا يتهامسان ويبتسمان وهما يختلسان النظر إلى فيرا. ومال بتروشكا الخمار – وكان بين المحلفين – إلى الأمام بوجه محتقن وسوالف تختلج، وكذلك ركز بقية المحلفين نظراتهم على فيرا باهتمام خاص عرف إيليا مصدره.. وشعر من ثم بالإشمئزاز والنفور. هؤلاء هم قضاتها.. ومع ذلك كانوا يتحسسون جسدها بنظراتهم الحيوانية ولشد ما تمنى إيليا في تلك اللحظة لو أنه صاح قائلًا لبتروشكا الخمار:

– أيها الحيوان.. ماذا يدور برأسك من أفكار؟

وشعر بغصة في حلقه تمنعه من الحديث.وكان المدعي العام يقول للمتهمة وهو يلوك الألفاظ في فمه قبل أن يطلقها:

– فيرا كابيتانوفا.. هل تمارسين البغاء منذ مدة طويلة؟

وأحنت فيرا رأسها وكان السؤال كان صفعة على وجهها، ثم قالت:

– نعم..

وسرى صوتها الهامس: الحاسم، كأنه حفيف أفعى فوق النظارة، وازداد رأس بافيل إنحناء، وعاد المدعي العام يقول:

– منذ متى؟

ولم تجب فيرا، وإنما وقفت مركزة أنظارها على القاضي جروموف. واستطرد المدعي العام يقول:

– منذ عام.. إثنين.. ثلاثة.. أربعة.

ولكنها ظلت صامتة وقد بدت كأنها تحولت إلى تمثال من الصخر. وقال القاضي جروموف:

– من حقك طبعًا أن ترفضي الإجابة على أي سؤال.

وهنا وثب محاميها واقفًا بقامته الطويلة النحيلة، وأنفه البارز وقال:

– أخبري المحلفين عن الظروف التي أرغمتك على ممارسة هذه المهنة..

– لم يرغمني شيء على ممارستها.

– لا لا.. ليست هذه الحقيقة.. أعتقد أنك قلت لي بنفسك

فهتفت قائلة بصوت غاضب:

– إعتقد ما شئت، ولكنني لم أقل لك شيئًا.

ثم إلتفتت إلى قضاها والمحلفين وأردفت قائلة وهي تومئ برأسها نحو المحامي:

– هل يمكن لي أن أتجاهله؟!

ومرة أخرى إنتشر في القاعة ذلك الحفيف الذي يشبه زحف الثعبان..

وإضطرب إيليا ونظر في إهتياج إلى بافيل.. كان يتوقع منه أن يقول أو يفعل شيئًا. ولكن بافيل ظل مطرقًا يختلس النظر بين الحين والآخر إلى ظهر الرجل الجالس أمامه: وإبتسم القاضي جروموف لفيرا، ووجه إليها بعض كلمات جعلتها تقول بصوت حازم ثابت:

– إنني أبحث عن المال الكثير، وقد سرقت الحافظة لهذا السبب. ذلك كل ما في الأمر.

وسرى الهمس بين المحلفين، وارتسم الإكتئاب على وجوههم، وحتى القضاة بدا عليهم الإستياء. وارتفع صوت المدعي العام خلال الصمت الثقيل يقول:

– ما دامت المتهمة معترفة بجريمتها فلا داعي لأن..

وضاعت بقية ألفاظه في سمع إيليا الشارد الذهن. وأراد أن يغادر القاعة، ولكن الحاجب منعه. وجلس ينظر إلى وجه بتروشكا الخمار،

المحتقن وكأنما هو العدالة نفسها، بينما أخذ القاضي يصدر حكمه بصوت الرجل الهادىء الذي يتحدث مع زميل له عن شأن بسيط من شئون الحياة..

وصاحت فيرا وراء القضبان حين أخذ القاضي يتحدث عن مهنتها:

– لا لا.. لا داعي لهذا الحديث.. إنني معترفة بكل شيء،ثم سقطت في القفص تتلوي وتنتحب.

وشعر إيليا بالفزع حين خطرت له هذه الفكرة.. كيف يكون الحال لو أنني إعترفت بجريمتي؟.. سوف ينطق بتروشكا بقرار المحلفين، وأذهب أنا إلى العذاب في المنفى.. ويبقى هو –بتروشكا – يعيش في خمارته وبيته كأنه لم يفعل في حياته شيئًا.

ووثب واقفًا.. وراح يشق طريقه خارج القاعة ورأى بافيل معتمدًا بكتفه إلى جدار القاعة شاحب الوجه، مرتعد الفكين. ونظر إيليا إليه وقال بغضب:

– هه؟ ما رأيك؟

وفتح بافيل فمه ليقول شيئًا.. ولكنه لم يستطع أن ينطق بكلمة. وعاد إيليا ليقول:

– دمرت حياتها.. أليس كذلك؟.

– أنا! لقد كنا ننوي أن..

– ماذا كنت تنوي؟ هل كنت تنوي أن تقول للقاضي أنها سرقت المال من أجلك؟ ألا يكفي أن يكون رجل مثل بتروشكا هو الذي يصدر الحكم عليها؟

وحاول بافيل أن يقول شيئًا. ولكن إيليا إنصرف عنه. وغادر المحكمة، وسار في الشوارع على غير هدى، كأي كلب ضال، حتى إذا أتى الليل وأضيئت المصابيح، شعر بالتعب وبالجوع.

وكانت الأضواء تنساب من النوافذ، وترسل حزمًا من الأضواء الشاحبة على الطريق.. ونظر إيليا إلى هذه النوافذ.. وتذكر أن بتروشكا الخمار قد يكون الآن جالسًا في حانته، يشرب الخمر، ويتحدث عن جمال فيرا التي أرسل بها إلى السجن!!

وعبر الشارع في غير حذر، وخطر له أن يدخل حانة ليسكر. ولكنه فوجئ بصيحة رجل يقول له:

– إبتعد عن الطريق..

ووثب تلقائيًا إلى الطوار.. وكاد وهو يثب أن يقع تحت سنابك جواد ينطلق بمركبة خفيفة في أقصى سرعة. ولما أفاق من هول الموقف قال لنفسه:

– إن الذي يقتلني يجب أن يكون شيئًا أكبر من جواد!

وابتسم فجأة وقال:

– آه.. إن الليلة عيد ميلاد تاتيانا.. فلماذا لا أذهب إليها؟ وأوقف مركبة في الطريق واستقلها إلى بيت تاتيانا.

الفصل السادس عشر

وبعد لحظات كان واقفًا بباب مسكن تاتيانا. ينظر إلى غرفة الطعام بعينين تطرفان من وهج الأنوار. ولم تلبث أن ارتسمت على شفتيه إبتسامة غامضة حين رأى المدعوين الجالسين حول المائدة. وصاح كيريك قائلاً:

– آه.. لقد حضرت أخيرًا.. هل أحضرت معك علبة شيكولاتة؟ ماذا أتحضر إلى حفلة عيد ميلاد بلا هدية؟

وأردف كيريك عبارته الأخيرة بضحكة عالية. وقالت تاتيانا:

– أين كنت؟!

وأمسك كيريك بذراعه وراح يقدمه للمدعوين.. وشعر إيليا – كما لو كان في حلم – بالأيدي الدافئة تصافحه، والوجوه المتباينة تبتسم له، وشم رائحة الشواء وسمع همهمة أصوات النساء، وأحس بعينيه تؤلمانه، فلم يعد يرى غير بقع من الألوان والأضواء.. ولما جلس أدرك من نبض قدميه مبلغ ما كان عليه من تعب وإرهاق. وبدون أن ينطق بكلمة، تناول شريحة خبز وراح يمضغها. وقالت له تانيانا:

– إنك لم تهنئني بكلمة. حقًا إنك ضيف مهذب. تأتي وتجلس وتتناول طعامك دون أن تلفظ بحرف واحد.

ثم ركلته برفق من تحت المائدة وهي تصب الشاي في الأقداح. ووضع إيليا شريحة الخبز على المائدة وفرد يديه وقال:

– لقد أمضيت نصف النهار في المحكمة.

وخيم السكون على الغرفة. وتركزت الأنظار على إيليا.. وشعر هو بأفكاره كأنها تتقطع إلى أجزاء صغيرة وتدور حول رأسه. وقالت إحدى الدعوات وهي تقدم صندوقًا من الحلوى إلى الضيوف ليتناولوا حاجتهم منه:

– إن الإنسان يرى في المحكمة أعجب قصص الحياة.

وأحمر وجه تانيانا، وأطلق كيريك ضحكة بصوت مرتفع.

وقال في النهاية بصوت بارد:

– إذن لقد كنت في المحكمة اليوم.

وأدرك إيليا أن عبارته أثارت جوًا من الامتعاض بين المدعوين. ولكنه لم يأسف لهذا، بل شعر بفيض من الإرتياح.

وقال موظف بإدارة البرق. وكان شابًا شاحب اللون أسود العينين:

– لقد شهدت ذات يوم محاكمة قاتل..

وقالت زوجة المدعو ترافيل:

– إنني أحب أن أسمع وأقرأ عن الجرائم والمجرمين.

وتلفت زوجها إلى الضيوف وقال:

– إن محاكمة المجرمين بركة على المجتمع.

وانقسم المدعوون إلى طائفتين، طائفة تستمع إلى موظف إدارة البرق، وأخرى إلى المدعو ترافيل.. ولاحظ إيليا أن تاتيانا وزوجها كانا ينظران إليه في خوف من أن يقول شيئًا يغضب مدعويهما..

ونهضت تاتيانا إلى الغرفة المجاورة لتقوم ببعض الأعمال. وكانت تشير إلى إيليا خلسة ليلحق بها. ولكنه تجاهل إشاراتها، وشعر بالإرتياح وهو يرى إمارات الإستياء تزداد وضوحًا على وجهها.

وفجاة سمع كيريك يقول له:

– لماذا أنت جالس هكذا كالتمثال يا إيليا لنييف؟ قل شيئًا! لا تخش أن تقول ما تريد. إن هؤلاء قوم مثقفون، ولن يسجلوا عليك أقوالك!

وعندئذ قال إيليا بصوت مرتفع:

– لقد حاكموا اليوم فتاة أعرفها.. إنها سيدة من بنات الهوى.ولكنها مع هذا محترمة!

ومرة أخرى وجد نفسه مركز اهتمام الجميع. وساد الصمت. وتوقفت حركة الأكل. وهدأت صلصلة الملاعق والشوك الأطباق وأخذ إيليا بهدوء يمسح وجوه الجميع بنظراته مستطردًا:

– لماذا تندهشون؟ إن بين بنات الهوى سيدات جديرات بالاحترام.

وأسرع كيريك يقول:

– نعم.. نعم.. ولكن لا داعي لأن تغالي في هذا الأمر.

فرد إيليا قائلاً بسخرية:

– إن ضيوفك مثقفون، وهم لن يسجلوا على أخطائي في الحديث.

وشعر فجأة كأن قنبلة إنفجرت في أعماق نفسه، فإبتسم في رفق، وخيل إليه أن قلبه توقف عن النبض وهو يلقي بحديثه الأهوج:

– وكانت هذه الفتاة متهمة بسرقة حافظة نقود من تاجر غني.

وهتف كيريك قائلًا بوجه يثير الضحك:

– مدهش.. مدهش!

وعاد إيليا يقول:

– ويمكنكم جميعًا أن تدركوا متى وكيف سرقت الفتاة حافظة الرجل. ولعلها لم تسرقها.. ربما كانت هدية منه لها في لحظة النشوة.

وصاح كيريك مبتهجًا:

– تانيانا.. تعالي.. إن إيليا يسرد علينا قصة ممتعة.

ولكن تانيانا كانت في تلك اللحظة قد وقفت بجوار إيليا قائلة بصوت ينم عن الإستخفاف:

- إنني لا أجد في هذه القصة ما يثير.. إنها قصة عادية جدًا.. لا شك أنكم سمعتم مئات مثلها. وعلى كل حال لا بأس من أن نسمع بقيتها بعد حين.. والآن.. هلموا إلى الغرفة الأخرى للشراب..

وتسابق الجميع في الإسراع إلى غرفة الشراب، مبتعدين عن إيليا، غير مستعدين للإنصات له لأن مضيفتهم لا تريد الإنصات إليه. وقد أثار هذا التصرف إنفعالات إيليا، فقال بصوت مرتفع موجهًا الحديث إليهم جميعًا:

- هل يمكنكم أن تصدقوا أن الناس الذين حاكموا هذه الفتاة كانوا جميعًا من عملائها! إنني أعرف بعضهم.. أعرف أنهم أسوأ من اللصوص.

فقال ترافيل بصوت حاسم وهو يرفع يده:

- لا لا.. إنهم جماعة المحلفين وقد كنت أنا نفسي

فقاطعه إيليا قائلًا:

- نعم.. نعم.. إنهم جماعة المحلفين.. ولست أدري كيف يمكن أن يحكموا على الناس وهم أنفسهم...

فهتف به ترافيل قائلاً بحدة:

- كفى لغواً. إن نظام المحلفين من التشريعات القانونية التي صدرت في عهد صاحب الجلالة إسكندر الثاني للصالح العام. فمن أنت حتى تجرح هذا النظام؟

ثم تقدم متحديًا إيليا.. وتحلق المدعوون حول الإثنين وقد توقعوا أن يتشابكا في معركة مثيرة. وجذبت تاتيانا كم أحدهم في إهتياج وقالت متوسلة:

– أرجوكم.. لا داعي للعراك.. هلم إلى غرفة الشراب.

وقال كيريك وهو يحاول أن يفض النزاع بضحكة عالية:

– هلم أيها الأصدقاء.. ليس هذا وقت المناقشة في الفلسفة.

وصاح ترافيل متحديًا وقد استبدت به الرغبة للنزاع:

– هذه ليست فلسفة، وإنما سياسة والذين يتفوهون بهذه العبارات ليسوا مواطنين صالحين.. إنهم من الفئات الخطرة على المجتمع..

ورغم إشتعال إيليا بالغضب، فقد استطاع أن يسيطر على صوته وأن يقول بهدوء قاتل:

– يمكنك أن تدعوني ما شئت. فأنت رجل مثقف كما يقال.. ولكنك لن تستطيع أن ترغمني على سحب أقوالي.. إن ذوي البطون الممتلئة لا يفهمون الجائعين. وقد يكون الجائعون لصوصًا.. ولكن المتخمين لصوص أيضًا..

وإستدار ترافيل نحو كيريك وقال له:

– كيريك نيكوديموفيتش.. إن هذه إهانة لا يمكن السكوت عليها..

ولكن تانيانا أمسكت بذراعه وراحت تجذبه إلى غرفة الطعام قائلة بصوت كله الإغراء:

– تعال إلى شطائرك المحبوبة.. شطائر الرنجة والسمك والبيض واللحم المشوي..

فلعق ترافيل شفتيه وقال وهو يسير مع تانيانا:

– إنني أعرف أمثاله

وقالت زوجته وهي ترسل إلى إيليا نظرة إحتقار:

– لا داعي لأن تعكر دمك للاشيء يا أنطون.

واستطردت تانيانا تقول بلهجة إغراء متزايدة:

– وشرائح خيار مخلل وطماطم محشوة و...

وفجأة توقف ترافيل وإستدار قائلًا لإيليا بلهجة الرجل المجرب الناصح:

– هذا تهور خطير منك أيها الشاب.. يجب أن تقدر الظروف.. يجب أن تفهم.

فقال إيليا بنفس الهدوء الذي يسبق العاصفة:

– هذه هي مشكلتي.. إنني لا أفهم.. لا أفهم مثلًا لماذا يرتفع شأن رجل مثل بتروشكا الخمار؟

وسار الضيوف نحو غرفة الشراب محاولين أن يبتعدوا عنه. وأقبل عليه كيريك وقال غاضبًا:

– إنك شاب عنيد غبي.. ما معنى هذا الجدل؟

وجفل إيليا فجأة.. وأظلم كل شيء أمام عينيه كأنما ضربه أحد بقوة على رأسه، وجمع قبضتي بديه وهجم على كيريك.. ولكن هذا كان قد إستدار وسار – دون أن يشعر بشيء – إلى غرفة الشراب.

وتشهد إيليا بعمق، وراح ينظر من مكانه عند الباب، إلى ظهور الجميع وهم مقبلون بشراهة على الطعام والشراب، وقد إمتلأت الغرفة بمصمصة شفاههم وهمهمة إبتلاعهم للاكل والخمر.

وقال ترافيل وهو يحشو فمه:

– ما أشهى هذا الطبق يا سيدتي.. إنه رائع.

فقالت له تانيانا بصوت عذب:

– هل تحب أن أضيف إليه بعض الفلفل؟

وقال إيليا لنفسه في حقد:

– أنا الذي سأحشو أفواهكم بالفلفل.

ثم رفع رأسه وتقدم بخطوات ثابتة إلى الغرفة، وإختلف كأس الخمر من أحد المدعوين ورفعها عاليًا أمام تانيانا وقال:

– في صحتك أيها الصديقة القديمة؟!

وهبطت هذه العبارة على الجميع كأنها الصاعقة.. أو كأنها يد خفية حطمت كل شيء وأغرقت المسكن في ظلام دامس جعل كل واحد من المدعوين يتسحر في مكانه لا يريم. وكانت الأفواه المفتوحة ببقايا الطعام تبدو بشعة النظر في الوجوه الخائفة.. المترقبة.

وعاد إيليا يقول:

– هلم يا كيريك.. إشرب معي كأسًا.. وأطلب من عشيقتي، زوجتك، أن تشاركنا الشراب. ماذا بك؟ لماذا تحاول دائمًا أن نقوم بأعمالنا القذرة في الخفاء؟ لنخرج إلى الضوء.. هذه هي الحقيقة التي قررت أن أواجهها.

وإرتفع صوت تانيانا صارخًا:

– أيها الحيوان؟

ورأى إيليا ذراعها وهي ترتفع لتقذف بصحن خزفي إلى رأسه. وإستطاع أن يتجنب القذيفة في اللحظة المناسبة، وسقط الصحن في دوي ضاعف من توتر أعصاب الضيوف.

وتراجع الجميع ببطء عن المائدة، تاركين تانيانا وزوجها لمواجهة الموقف. وكان كيريك واقفًا ممسكًا بسمكة من ذيلها، محملقًا في وجه إيليا ببلاهة، بينما كانت تانيانا ترتعد بعنف وتهز قبضتها في وجه إيليا. وكان

وجهها شديد الإحمرار حتى صار في لون ثوبها، وكانت الكلمات تخرج من فمها ثقيلة متعثرة:

- إنك كاذب.. كاذب.. حقير..

فرد إيليا قائلًا بهدوء:

- هل أذكر لهم الحقيقة؟ هل أصف جسدك عاريًا؟ هل أحدد العلامات الموجودة على جسدك والتي لا يمكن أن يراها إلا زوج أو عشيق؟

وسرت في الغرفة ضحكات مكتومة. ولكن تانيانا رفعت يديها، وأمسكت بعنقه كأنما تخشى أن تختنق ثم تهالكت في شبه إغماء على أقرب مقعد إليها.

وقال أحدهم:

- يجب إستدعاء رجال الشرطة.

ولكن كيريك تجاهله، ثم تقدم نحو إيليا كالثور الهائج.. ولكن إيليا أزاحه ببساطة عن طريقه قائلًا:

- إلى أين أنت ذاهب؟ لا تفقد عقلك، فلو أني ضربتك لقضيت عليك في لحظة. ولكن إسمع.. إنك لم تتعود أن تسمع الحقيقة دائمًا..

ولكن كيريك إستأنف الهجوم مرة أخرى، وكتم الجميع أنفاسهم وفرك ترافيل يديه وهو يتوقع أن يرى إيليا طريحًا على الأرض. ولكن إيليا أزاح كيريك مرة أخرى عن طريقه وقال:

– إنني لا أريد أن أؤذيك.. إنك غبي أحمق مغمض العينين، ولكنك لم تؤذني يومًا.. إبتعد عني.

ثم دفعه مرة ثالثة بمزيد من القوة جعلت كيريك يصطدم بالجدار المقابل، وإستدار إيليا إلى المدعوين وقال لهم:

– إن زوجته تانيانا فرضت نفسها علي.. أرغمتني على أن أتجاوب مع رغباتها، إنها سيدة ذكية، ولكنها أحقر من الحقارة ذاتها..لقد أمضيت يومي في الحكمة وعرفت كيف أحكم على غيري من الناس؟

وأراد أن يقول أشياء كثيرة، إلا أن الأفكار كانت متزاحمة في رأسه، ومن ثم راح يبذل جهده لتنسيقها.. وأخيرًا قال:

– إنها ليست تانيانا التي أردت أن أكشف حقيقتها.. لقد حدث هذا عرضًا.. وإنما أردت في الواقع أن أكشف لكم عن حقائق كثيرة أخرى.. منها على سبيل المثال أني قتلت رجلًا بمحض المصادفة. لم أكن أريد أن أقتل هذا إطلاقًا.. ولكنني فعلته.. قتلت رجلًا دون أن أشعر.. وأنا الآن مشترك في التجارة مع تانيانا بمال هذا الرجل القتيل.

وصاح كيريك سعيدًا:

- إنه مجنون.. مجنون..

ثم راح ينتقل من ضيف إلى آخر وهو يهتف قائلاً:

- أرأيتم.. إنه مجنون.. مجنون.. مسكين إيليا.. مسكين!

وإنفجر إيليا ضاحكًا وقد شعر بالراحة بعد أن اعترف بجريمته شعر كأن الأرض قد تلاشت تحت قدميه وأصبح معلقًا في الهواء.. خفيفًا طائرًا.. يرتفع ويرتفع إلى مالا نهاية..

ونظرت تانيانا إلى وجه إيليا المضطرب وإلى عينيه المحملقتين، ثم قالت للواقفة بجانبها:

- كنت ألاحظ منذ مدة طويلة أنه مجنون.. أنظري إلى وجهه.. أنظري إلى عينيه! يا للهول!

وقالت مدعوة أخرى وهي ترنو إلى إيليا في خوف:

- إذا كان قد جن فيجب إستدعاء رجال الشرطة.

وعاد كيريك يهتف سعيدًا:

- إنه مجنون.. مجنون.. أرأيتم؟!

وقال المدعو كريزلوف وهو يتلفت حوله في حذر:

- من يدري.. ربما عمد إلى قتلنا جميعًا؟

وتسمر المدعوون في أماكنهم عاجزين عن الحركة. وكان إيليا واقفًا بجوار الباب. ومن ثم لم يكن في مقدور أحد أن يخرج دون أن يمر به. وكان لا يكف عن الضحك، إذ إمتلأت نفسه إبتهاجًا وهو يرى هؤلاء المدعوين ينظرون إليه بخوف وترقب. وكذلك لاحظ أنهم لم يكونوا آسفين حين إنهال بالإهانات على تانيانا وزوجها ولعلهم تمنوا لو ظل يصب هذه الإهانات على رأسيهما طوال الليل، إلا أن الخوف منه خنق هذه الأمنية في صدورهم.

وزوى ما بين حاجبيه متحفزًا وقال:

– إنني لست مجنونًا. ها. لا يتحرك أحدكم. إنني لن أسمح لكم بالخروج من هنا. الآن على الأقل. وإذا حاول أحدكم أن يخالفني فسوف أقتله. إنني قوي..

ثم رفع ذراعه المفتولة العضلات في الهواء، وعاد يقول:

– والآن أخبروني. أي نوع من المخلوقات أنتم؟! أية فائدة فيكم أيها الغرباء التعساء! أيها الذئاب. نعم. إنكم مجموعة من الذئاب.

وصاح كيريك غاضبًا:

– إخرس!

– بل أنت الذي ستخرس. لسوف أصارحكم برأيي فيكم. إنني لا أملك نفسي عن التعجب وأنا أنظر إليكم. إن كل همكم في الحياة أن

تحشوا بطونكم بالطعام والشراب، وأن يخدع بعضكم البعض دون أن يشعر أحدكم بعاطفة حقيقية نحو غيره. ماذا تريدون؟ وإلى أي هدف تسعون؟ لقد حاولت أن أعيش نظيفًا مستقرًا محترمًا. ولكننى لم أجد شيئًا من هذا في أي مكان. وكل ما حصلت عليه أني أفسدت حياتي كلها. إن الإنسان المحترم ليس له مكان بينكم. إنكم تدفعونه دفعًا إلى الجريمة أو إلى القبر .. أنظروا إلي! إنني شاب وقوي. ومع ذلك فأنا بينكم عاجز مثل القط الذي أطلق على عدد من الجرذان في كرار مظلم. إنكم أنتم الحكام، وأنتم الخصوم، وأنتم الذين تضعون القانون. ولكنكم في نفس الوقت مجموعة من اللصوص والخونة والإنتهازيين.

وفي تلك اللحظة وثب الموظف بإدارة البرق وإندفع مارقًا من الباب قبل أن يمنعه إيليا الذي ضحك قائلًا:

– آه. لقد فر أحد الجرذان.. عليه اللعنة!

وصاح المدعو الهارب وهو في طريقه إلى الشارع:

– إنني ذاهب لاستدعاء رجال الشرطة.

ورد عليه إيليا قائلًا:

– إذهب. إن هذا لم يعد يهمني.

وسارت تانيانا خارجة من الغرفة وكأنها تمشي في نومها. وأومأ إيليا برأسه نحوها وقال ساخرًا:

– لقد وجهت إليها ضربة قاضية. إن هذا أقل ما تستحق. هذه الأفعى! وصاح كيريك الذي كان منحنيًا في ركن الغرفة يبحث عن شيء في درج خزانة الملابس..

– إمسك لسانك أيها القاتل المجنون.

وجلس إيليا وعقد ذراعيه على صدره وقال:

– لماذا تصيح أيها المأفون المخدوع؟! إنني اقسم لك إنني كنت عشيقًا لها. تحت أنفك. أيها الأبله. وإفهم أيضًا إنني قتلت ذلك المرابي بولكتوف؟ أتذكر كيف كنت أسألك كثيرًا عنه؟ كنت أسألك عنه لأنني قاتلة، وأقسم أيضًا إنني إشتركت مع زوجتك في التجارة بالعمل الذي سرقته منه.

وتلفت إيليا إلى الوجوه الخائفة، وشعر بالغضب من نفسه لأنه اعترف بجريمته أمام هؤلاء البلهاء الخائفين. وعاد يقول:

– أتحسبون إنني أعترف بجريمتي لأني نادم عليها؟! لا، لا. وإنما لأضحك من منظركم. هذه هي الحقيقة.

ووثب كيريك أخيرًا وقد أمسك بمسدس ضخم مصوب الفوهة إلى إيليا وقال محذرًا:

– إنك لن تستطيع الهرب الآن. إذن فأنت قاتل المرابي العجوز بوالكتوف؟

وشهقت النساء. ونهض ترافيل قائلاً:

– أيها السادة. دعوني أخرج. لا شأن لي بهذه المنازعات الخاصة

ولكن كيريك لم يحفل به، وإنما تقدم متحفزًا من إيليا وهو يصيح مغضبًا:

– لسوف تحاكم. لسوف تنفى مدى الحياة للعمل الشاق في مجاهل سيبريا.

ونظر إيليا إليه في استخفاف وقال:

– لا أعتقد أن مسدسك هذا محشو بالرصاص. ثم لماذا أنت مهتاج إلى هذا الحد؟ إنني لا أفكر في الهرب. وإذا كان النفي هو مصيري، فليكن. إنه لن يكون أسوأ مما أنا فيه الآن.

وإرتفعت همسات زوجة ترافيل وهي تقول:

– أنطون. أنطون. هلم نخرج.

– يبدو أننا لن نستطيع يا عزيزتي.

ولكنها أمسكت بذراعه، وسارت به عبر الباب إلى الغرفة الأخرى التي كانت تانيانا جالسة فيها لتنتحب، وشعر إيليا فجأة بفراغ هائل في داخله. فراغ مظلم بارد يتردد فيه – كالصدى – هذا السؤال: "ماذا سيحدث بعد ذلك؟!"

وبصوت هادىء مسموع، قال:

– وهذه هي النهاية.

وصاح كيريك قائلاً:

– لا تحاول أن تثير عطفنا عليك.

– إنني لا أحاول هذا. عليك اللعنة. إنني أفضل أن أثير عطف كلب ضال على إثارة عطفكم أنتم.. إنني أتمنى لو إستطعت أن أقضي عليكم جميعًا. إبتعد عن طريقي يا كيريك. إنني لا أطيق النظر إليك!

وأخذ المدعوون – الواحد بعد الآخر – يتسللون خارجين من الغرفة وهم يرسلون إلى إيليا نظرات خوف مختلسة. أما هو، فقد كانوا في نظره مجرد بقع سوداء لا تثير في نفسه أية مشاعر أو تحرك في رأسه أية أفكار ذلك أنه كان يشعر بالفراغ في داخله يتسع ويمتد ويشمله كله. وظل جالسًا برهة ينصت إلى كيريك. وأخيرًا ضحك وقال:

– هلم نتصارع يا كيريك.

فصرخ كيريك قائلًا:

– لسوف أطلق الرصاص على رأسك.

وضحك إيليا مرة أخرى وقال:

– إن مسدسك فارغ.

ثم أضاف قائلاً:

– إنني واثق أني سأغلبك في المصارعة.

وأرسل نظرة عابرة إلى المدعوين الباقين في الغرفة وقال دون أن يرفع من طبقة صوته:

– لشد ما أتمنى أن أعرف أين هي القوة التي يمكن أن تحكم جميعًا عن وجه الأرض؟

ولزم الصمت التام بعد ذلك، وظل جالسًا لا يريم..وبعد مدة وجيزة، أقبل إثنان من رجال الشرطة يتقدمهما ضابط ومن ورائهما ظهرت تانيانا لازينا تقول وهي تشير إلى إيليا:

– لقد اعترف أمامنا جميعًا. إنه قتل بولكتوف.

المرابي.. هل تذكرون الحادثة؟

ورد الضابط قائلاً بسرعة:

– هل يمكن إثبات هذا؟

فقال إيليا بهدوء:

– لماذا لا؟ إنني أستطيع إثبات هذه الحقيقة.

وجلس الضابط إلى المائدة وراح يكتب اعترافات إيليا الذي وقف رجلا الشرطة وراءه. ونظر إيليا إليهما، وتنهد بعمق، ثم أطرق برأسه.

وفوجيء الجميع بكيريك يلقي بالمسدس جانبًا ويقول لضابط الشرطة:

– سافليف. إضربه ضربًا مبرحًا ثم أطلق سراحه. إنه مخبول فقط..

فنظر سافليف برهة إلى كيريك، وبعد أن فكر مليًا، قال:

– لا أستطيع أن أفعل هذا بعد أن اعترف بنفسه أمامي.

وتنهد كيريك وقال:

– يا للمسكين!

وقال إيليا ساخرًا:

– يا لقلبك الرقيق يا كيريك نيكوديموفيتش! إن هناك كلابًا مثلك؟ إذا ضربتها جاءت تتمسح فيك. ولكن لعلك لا تأسف من أجلي، وإنما خوفًا من أن أفضح زوجتك أثناء المحاكمة. لا تخف. لن أقول عنها شيئًا. إنني أشعر بالعار من مجرد ذكر إسمها.

وأسرع كيريك إلى الغرفة الأخرى وتهالك جالسًا.

وقال الضابط لإيليا:

– إقرأ هذه الاعترافات ثم وقع عليها بإسمك كاملًا.

ووقع إيليا على الأوراق دون أن يقرأها. ولما رفع رأسه، رأى الضابط ينظر إليه في دهشة وتساؤل ثم يقول له:

– هل ضميرك هو الذي دفعك إلى الاعتراف؟

فقال إيليا بلهجة حاسمة:

– إنني بلا ضمير.

وساد الصمت برهة، ثم إذا كيريك يقول في الغرفة الأخرى:

– إنه مجنون. مجنون بلا أدنى شك.

وهز الضابط كتفيه وقال لإيليا:

– هلم، معي..

ثم رمقه بنظرة فاحصة وقال:

– إنني لا أريد أن أضع القيود في يديك. ولكن عدني ألا تحاول الهرب..

وقال إيليا في صوت كله اليأس:

– إلى أين أهرب؟

– إذن أقسم بأعز شيء عليك.

فأرسل إيليا ضحكة قصيرة: وقال:

– وهل لمثلي ما يعتز به في هذه الدنيا؟

وحراك الضابط يديه في يأس وقال:

– حسنًا، هلم.

وما إن خرج إيليا إلى ظلمة الليل ورطوبة الجو حتى تنهد بعمق، ثم رفع رأسه إلى السماء فإذا هي خفيضة سوداء وكأنها سقف مثقل بالهباب الغرفة منيرة خانقة.

وقال الضابط بلهجة آمرة:

– تقدم..

وسار في الطريق. وكانت البيوت على الجانبين تبدو وكأنها مرتفعات صخرية هائلة. وتناثر الطين تحت قدميه، وأخذ الطريق ينحدر إلى مزيد من الظلام المتكاثف وتعثر إيليا في صخرة، وكاد أن يقع، ولكن سؤالًا واحدًا كان يتردد في فضاء نفسه بلا توقف:

– ماذا سيحدث بعد ذلك؟ هل سيكون بتروشكا بين المحلفين؟!

وتحول السؤال إلى صورة كان قد رآها في الصباح.. صورة القاضي وهو يصدر الحكم كأنه يتحدث عن موضوع عادي، ووجه بتروشكا الخمار! وشعر بألم في أصابع قدمه التي تعثرت، وخفف من سيره بعض الشيء.. وفي أذنيه كان يسمع صدى الأحاديث في المحكمة. وصوت رجل يقول مشيرًا إلى القضاة والمحلفين «إنهم يحسنون وزن الأمور، لأنهم لا يعانون من سوء التغذية». ثم عاد مرة أخرى يسمع صوت القاضي وهو يصدر الحكم بهدوء الإنسان الذي يتحدث في موضوع عادي:

– هل تعترفين؟

ثم صوت المدعي العام وهو يهدر في وجه فيرا:

– منذ متى وأنت تحترفين هذه المهنة؟!

ورأى إيليا وجه بتروشكا المقطب. المريب. واختلاج شفتيه. وأحس بألم رهيب لا يوصف يستبد به وكان ثمة سكينًا يمزق جسده، وأنا هو، من فرط هذا الألم، يثب إلى الأمام، ثم يجري بكل قوته فوق الشارع المرصوف بالبلاط. وصفرت الريح في أذنيه، وتلاحقت أنفاسه اللاهثة، وأخذ يطوح بذراعيه، كالمجدافين، ليدفع بهما جسمه إلى الأمام. إلى الظلام. ومن ورائه كان يسمع دقدقة أقدام رجال الشرطة المنطلقين خلفه. ثم صوت صفارة مرتفعًا، وصوت رجل يقول:

– إمسكوا به. إمسكوا به. بالقاتل.

وخيل إلى إيليا أن كل شيء يدور حوله. الجدران والبيوت والطريق والمصابيح المطفأة كلها تدور وتدور وتوشك أن تطبق عليه. ولكنه ظل مندفعًا إلى الأمام بكل قواه. غير حافل بالتعب، لايهمه شيء إلا أن يبتعد عن وجه بتروشكا الخمار.. وفجأة إرتفع أمامه شيء مسطح رمادي. وتذكر أن الطريق ينعطف يمينًا المرة بعد الأخرى حتى ينتمي إلى الطريق العام المزدحم بالناس. ومعنى هذا أنه سيقع في قبضتهم. وصاح بكل قواه وهو يندفع إلى الأمام:

– هل لحقوا بي وأمسكوني؟

وفي تلك اللحظة رأى ذلك الشيء الرمادي المسطح المرتفع أمامه، وكان جدارًا في الظلام. وإرتفع في الجو صوت إرتطام يشبه إرتطام الأمواج حين تتكسر على الصخور. صوت إرتطام سريع. ثم سكون تام. ووصل إلى الجدار شخصان آخران. وإنحنيا على الجسد الملقى بجواره. ولحق بهما أشخاص آخرون في أدنى التل. وأشعل أحدهم عود ثقاب، ونظر الجسد الملقى، ثم هتف:

– عجبًا! لقد انكسرت رأسه إلى نصفين؟

وقال آخر:

– يا للمسكين.

ورسم ثالث علامة الصليب على صدره وهمهم قائلاً:

– عسى أن يرحمه الله.

الفهرس